قافلة الزيت

ذو الحجة ١٣٨٨ - فبراير - مارس ١٩٦٩



بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الثاني عشر المجلد السادس عشر

تصدر شهرياً عن :
شركة الزيت العربية الأمريكية
لموظفي الشركة - توزع مجاناً

رئيس التحرير والمدير المسؤول منصور مدني
المحرر المساعد عوني أبوكشك

العنوان : صندوق رقم ١٣٨٩
الظهران ، المملكة العربية السعودية

صورة الغلاف



« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .. »
(مئذنتان من مآذن الحرم المكي الشريف)
تصوير : شيخ أمين

مطابع المطوع

محتويات العدد



بسم الله الرحمن الرحيم

ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين . (قرآن كريم)

من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه . (حديث شريف)

تهنئة العيد

يطيب لأسرة تحرير قافلة الزيت أن تنتهز هذه المناسبة الكريمة ، مناسبة عيد الأضحى المبارك ، لترفع الى جلالة الملك فيصل المعظم والى الشعب السعودي الكريم ، والى حجاج بيت الله الحرام ، والى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، أخلص التهاني وأسمى التبريكات ضارعة الى العلي القدير أن يعيده على الجميع وهم يرفلون بالعز والرفاهية والنصر والسؤدد . وكل عام وأنتم بخير .

أسرة التحرير



بقلم الاستاذ عبدالله بن خميس

هي حجة النبي عليه الصلاة والسلام الفريدة في الاسلام .. تسمى حجة الوداع ، وتسمى حجة البلاغ . حجة الوداع لأن النبي عليه السلام ودع المسلمين فيها ، وقال : **لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا ،** ونزلت في أثنائها آية : «**اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا ..**» . وحجة البلاغ ، لأنه عليه السلام ، خطب فيها ، وشرع ، وحذر ، وأنذر ، وهدى أمته صراطها المستقيم ، وقال في خطبته : « **الا هل بلغت ؟ اللهم أشهد ..** »

فهي حجة وداع ، وبلاغ . هذه الحجة ، وفيها للمتعظين والمتدبرين من هذه الأمة عبر وعظات ودروس ، يجدر بهم أن يقفوا عندها ، ويستلهموا منها ما هم بأشد الحاجة اليه ، في معاشهم ، ومعادهم .. ولعلنا في هذا المقال ، نوفق لاستعراض بعض هذه الجوانب ، ما منها يتعلق بالتشريع ، وما يتعلق بالتربية والاجتماع ..

حج عليه السلام حجة واحدة ، وشرع لأمته الحج مرة ، وما زاد فهو تطوع .. وهو قائد أمة الاسلام ، وموجهها ، والمشرع لها ، ولقاؤه باجتماعها الأكبر في موسم الحج مما يستدعيه المقام وتقتضيه رسالة التبليغ . ومع ذلك فلم يحج سوى مرة ، وما كان الحاج في عدده يبلغ معشار عدده اليوم ، وما كانت ظروف الحج ، ومتطلباته ، وتكاليف الحياة مثلها اليوم .. ولكن ما يحسه من ظهور الاسلام ، ونموه ، وكثرة اتباعه ، وما يخبئه الزمن لهذا السيل العرم من الناس ، يلتقي بين جبلي مكة ، وتموج به وهادهـا ونجادها ، وتغص به المشاعر ، وتضيق بـه الطرقات ، ويلقى الحاج من شدة الزحام ، وتعسر اداء المناسك ، مـا يلقى من تعب ونصب.. كل ذلك كان من مقاصد التشريع ، ومـن علامات النبوة . فليت شعري هل أدرك هؤلاء الذين قضوا ما أوجبه الله عليهم من فريضة الحج ، وطفقوا يتابعون الحجة تلو الحجة ، متحرين ثواب الله ، ملتمسين فضله ، وهم يرون ما يصيب أخوانهم في الحج ، من عنت وارهاق ، ومن تكوّن هذا الجمع العظيم في صعيد واحد ، تقتضيه واجبات حجه أن ينتقل في فترة قصيرة من مكان الى مكان ، بما يحمله ، وما يشربه ، وما يقيته ، وما يظله وما يفرشه ؟.. ليت شعري هل أدركوا مقاصد النبوة ، وحكمة التشريع ، في عدم حجه عليه السلام سوى مرة واحدة . مع قيام الدوافع ، وقلة الموانع ؟

الا فان تقوى الله ، وسبل خيره ، وتنوع عباداته ، وعظيم مثوبته ، لها أبواب وطرق ، مالية وبدنية .. تضاعف فيها الأجور ،

وتنمو فيها الحسنات ، وتقال فيها العثرات .. فلنتحرها ، ولنقتبس من عمل المشرع ، ما فيه خيرنا ، وتيسير سبل الحج لغيرنا . هذا جانب .

وجانب آخر ، يتمثل فيه يسر هذا الدين ، ومرونته ، ورفقه باتباعه ، ومواءمته لظروفهم ، ونفسياتهم ، وامكاناتهم ، ساق عليه السلام الهدى مائة بدنة ، مقلدة مشعرة ، واحرم بحج وعمرة ، يقتضيه أن يبقى محرما حتى يكمل مناسك الحج . ولما فرغ من طوافه وسعيه ، قال : « **لو اني استقبلت من أمري ما استدبرت ، لم أسق الهدى ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى ، فليحل ، وليجعلها عمرة ..** »

ونفست أسماء بنت عميس ، زوج أبي بكر الصديق ، بمحمد بن أبي بكر ، بذي الحليفة ، ميقات أهل المدينة ومن حيث أحرم عليه السلام . وعركت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم بسرف .. وعركت صفية ورسول الله صلى الله عليه وسلم على وشك مغادرة مكة قبل أن تودع . فكان في الثلاث أحكـام ميسرة ، لذوات الاعذار مثلهن .

وفي أحكام الرمي ، والحلق والذبح ، وطواف الافاضة ، في تقديم بعضها على بعض ، ما سئل عن شيء الا قال : « **افعل ولا حرج ..** »

وقال : « **نحرت ها هنا ومنى كلها منحر ، ووقفت ها هنا وعرفة كلها موقف ، ووقفت ها هنا وجمع كلها موقف .** » واذن لضعفة الناس ، والسقاة والرعاة ، أن ينصرفوا من المزدلفة بعد منتصف الليل ..

وعند انصرافه من عرفة ، أخذ يروض الناس ، ويقول لهم : « **السكينة السكينة ..** » رفقـا بضعفتهم ، وحنانا عليهم . وجاءه عروة بن مضرس الطائي ، وهو بالمزدلفة ، فقال : « يا رسول الله اني جئت من جبلي طيء ، أكللت راحلتي ، وأتعبت نفسي ، والله ما تركت من جبل الا وقفت عليه .. فهل لي من حج ؟ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **من شهد صلاتنا هذه ، ووقف معنا حتى ندفع ، وقد وقف قبل ذلك بعرفة ليلا أو نهارا ، فقد تم حجه ، وقضى تفثه .** »

وفي مجال التسهيل واليسر ، نزلت هذه الآيـة « **.. فمن تعجّل في يومين فـلا اثم عليه ، ومن تأخّر فلا اثم عليه لمن اتقى ..** »

وجاءت اليه عليه السلام امرأة من خثعم ، فقالت : « يا رسول الله ، ان فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة .. أفأحج عنه ؟ »

قال : « **نعم** » .

ولقي صلى الله عليه وسلم ركبا بالروحاء ، فقال : « **من القوم ؟** » قالوا : « المسلمون . » فقالوا : « من أنت » ؟ قال « **رسول الله** » . فرفعت اليه امرأة صبيا فقالت : « ألهذا حج ؟ » قال : « **نعم ولك أجر .** »

وخطب عليه السلام فقال : « **أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج ، فحجوا .** » فقال رجل : « أكل عام يا رسول الله ؟ » فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « **لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم .** » ثم قال : « **ذروني ما تركتكم ، فانما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شيء فدعوه .** »

جوانب مغدقة ، كلها تدل على اليسر والرحمة ، وسهولة التشريع ، ومرونة العبادة ، ورفع الاصر والحرج والاعنات ..

وجانب ثالث تتمثل فيه انسانية الاسلام ، ومساواته وعدالته .. وبلوغه درجة السمو والمثالية ، في صيانة حوزة الاجتماع ، وبناء هيكل الأمة ، على أساس من الاحترام ، وحفظ حقوق الفرد والمجتمع .. كانت قريش تسمي نفسها الحمس ، وكانت ترى لها الصدارة والجدارة على أمـم العاملين ، وتترفع أن تسلك نفسها في سمط تشترك فيه مع جميع الناس ، فكان الناس اذا حجوا ووقفوا بعرفة ، لا تخرج قريش عن حوزة الحرم ، بل تكتفي بالوقوف بالمزدلفة ، ليفيض اليهم الناس من عرفة ، بعد أن ينتهي وقوفهم هنالك ، فكان مشهدا بارزا من مشاهد الأثرة والأنانية ..

ولما حج عليه السلام ، توقع الناس ، وخصوصا قريشا أن يقف حيث تقف قريش ، ولكنه صدف عن ذلك ، ووقف حيث أمره الله ، ومن حيث يقف الناس جميعا .. وقال الله له : « **ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ..** »

وخطب عليه السلام يوم عرفة ، في نمرة ، فقال فيما قال : « **ان دماءكم ، وأموالكم ، حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . الا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وان أول دم أضع مـن دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، (كان مسترضعا في بني سعد ، فقتله هذيل) . وربـا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس ابن عبد المطلب ، فانه موضوع كله .. فاتقوا الله في النساء ، فانكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله .** » وقال في نهاية خطبته : « **الا هل بلغت ؟** » فقالوا « نعم » . قال : « **اللهم أشهد .** »

وكان الناس في جاهليتهم يطوفون بالبيت عراة ، فأبطل الاسلام هذه العادة ، وحفظ للانسانية كرامتها ، ومكانتها ..

وخطب صلى الله عليه وسلم في منى أيام التشريق ، فقال : « **يا أيها الناس الا ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، الا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر عـلى أسود ، ولا لأسود عـلى أحمر ، الا بالتقوى . أبلغت؟** » قالوا : « بلّغ رسول الله . »

والى جانب هذه الصور الرائعة من المساواة والعدل تبرز صورة عملية لهذا السواد الأعظم يتحد في لباسه ، ويتبارى في مظهره ، وتعنو وجوهه الى ربه ، وتتجاوب أصداؤه بألفـاظ متجانسة ، من التلبية والتسبيح والتهليل .. جعل دنياه دبر أذنيه ، وأقبل الى ربه ، يسأله من فضله ، ويستجير به من عقابه . جمعهم صعيد العبادة ، ولفتهم الروحانية ، وأحاطت بهم الهيبة والوقار ، وواكبهم الفضل والنبل .. فلله ما أجمل هذا المظهر ، وما أروع جمع المسلمين تجمعهم بطاح مكة ، ويسيل بهم نعمان الأراك ، ويحتضنهم المأزمان ، ويقوم فوق رؤوسهم ثور وثبير ! ! « **ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطّوفوا بالبيت العتيق ..** »

هو مظهر من مظاهر العبادة ، يرمز الى اتحاد الكلمة ، وتواشج الأهداف ، وتلاقي القلوب .. لينفضوا ، ويرجعوا الى أهلهم ، وهم أشد ما يكونون ايمانا ، وأطهر ما يكونون أفئدة ، وأحرص مـا يكونون تضحية وايثارا وجهادا وسدادا .

فما أحوج حجاج اليوم ، أن يكونوا مثل أولئك ، وما أحراهم أن يتخذوا من حج نبيهم وسلفهم الأمثل أحسن أسوة ، وأجمل قدوة ، واذن لبدلهـم الله بعد خوفهم أمنا ، وأعاد لهم الكرة وبوأهم من فضله . « **.. ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ..** » ■

اولادنا

بين الشعر والشعراء

بقلم الاستاذ محمد عبدالغني حسن

الولد كل ما ولد للانسان ، ويطلق على الذكر والأنثى ، والواحد والجمع . فكل من الابن والابنة ولد ، وجمعه أولاد . وهم زينة الدنيا ، وبهجة الحياة . والولد الصالح أحد الأشياء الثلاثة التي لا ينقطع عمل الانسان منها بموته ، والآخران هما الصدقة الجارية ، والعلم الذي ينتفع به .

وقد استجاب الشعر العربي من خلال العصور لعاطفة البنوة . فاهتم كثير من الشعراء بالتعبير عنها ، وتسجيل تبعاتها ، ورصد الانفعال بها في حالات الفرح والحزن على السواء . والحق أن الشاعر العربي كان – ككل أب – كثير الاشفاق على ولده ، كثير السهر على حمايته ، شديد الالتصاق بالأرض التي فيها أبناؤه ، مخافة أن تنقطع عنهم رعايته . بل كره بعضهم الموت ، وتمنى الحياة شفقة على أولاده ، حتى لا يقعوا فريسة لليتم ، وغرضا لما فيه من ذل وبلاء . ولهذا سمعنا الشاعر القديم أبا البنات يقول في هذا المعنى :

لقد زاد الحياة الـيّ حُبّـا
بناتـي ، انهـن من الضعاف
مخافة أن يذقن اليـتم بعدي
وأن يشربن رنقا بعـد صاف

وما صور شاعر عربي اشفاقه على أولاده ، كما فعل الشاعر القديم « حطّان بن المعلّى » الذي يقول :

لـولا بنيات كـزغـب القطـا
رددن من بعض الى بعـض
لكان لـي مضطرب واسـع
في الأرض ذات الطول والعرض
وانـمـا أولادنـا بيـنـنـا
أكبادنـا تمشي عـلى الأرض
لـو هبّت الريـح على بعضهم
لامتنعت عيـني من الغمض !

واذا كان الأولاد هم في الدنيا رياحين قلوبنا ، وأكبادنا الماشية على الأرض ، فان الشاعر « المهجري قيصر سليم الخوري «الشاعر المـدني» قد رآهم أعذارا لنا يوم الحشر عن خطايانا التي ارتكبناها من أجلهم في الدنيا ، وما أرقه وهو يقول :

وما همّني ليل وفي الدار صبية
يرافقني منهم عـلى البعد أقمار
صغار لقد حمّلت نفسي لأجلهم
معاصي هم منها بريئون أطهار
وما خاف من عقبى الخطيئة والد
فأولاده في موقف الحشر اعذار

والأبناء يبدون في عيون آبائهم وأمهاتهم أجمل الأبناء ، ولو لم يكونوا من الجمال على شيء .. حتى لقد قيل في المثل : « زين في عين والد ولده » والشعر كالأبناء في هذه الناحية ! فالشاعر مفتون بشعره أكثر من شعر غيره ، حتى ليظنه وحده الشعر لا ما عداه !

والأبوة التزام شديد نحو الأبناء . والأبناء يجشمون آباءهم كل مشقة في سبيل اعاشتهم ، حتى ليركب الوالد متن الأخطار ، في سبيل أولاده الصغار . ولم يفت الشاعر الجاهلي عروة ابن الورد أن يسجل هذه الظاهرة حين رمى بنفسه في مطارح الأرض ليضمن قوت عياله فقال :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا
من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا ، أو ينال رغيبة
ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقد يبدو هناك تناقض بين موقف الشاعر ابن المعلى الذي لولا تقيده بأولاده لكان له مجال في أرض الله الواسعة ، وموقف الشاعر عروة بن الورد الذي قذف بنفسه في كل أرض بعيدة ليجلب الرزق لأولاده .. ولكن لا تناقض هناك . فالاشفاق دعا الأول الى المرابطة بجوار أبنائه حتى يرعاهم عن كثب ، والاشفاق أيضا دعا الثاني الى التجوال في الأرض والمشي في مناكبها ليمسك رمق أولاده !

وقد يقع من الأبناء عقوق نهت عنه الديانات والشرائع ، لأن البر غالبا هو مظنة الأبناء تجاه الآباء . ولم يقف الشاعر العربي الأب صامتا أمام ظاهرة العقوق من ولده . فهذا الشاعر المخضرم أمية بن الصلت يلقى من أحد أولاده عقوقا لم يكن يتوقعه . فيعاتبه — بل يقرعه — بأبيات تلين قلب الجماد ، يقول فيها :

غذوتك مولودا ، وعلتك يافعا
تعل بما أحنو عليك ، وتنهل
اذا ليلة نابتك بالسقم لم أبت
لشكواك الا ساهرا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي
طرقت به دوني ، فعيني تهمل
فلما بلغت السن والغاية التي
اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة
كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق أبوتي
فعلت كما الجار المجاور يفعل !

ولعل أبشع أنواع العقوق هو ما يقع من الأبناء على الأمهات ، لأن الأم أولى بالبر وحسن الصحابة من الأب ، لضعفها ولشدة ما قاسته من آلام الحمل والولادة . ولقد منيت شاعرة عربية ، هي أم ثواب الهزانية ، بولد لها قاسي القلب يضربها ويعنفها ويمزق ثيابها ، فقالت فيه :

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه
أم الطعام ترى في ريشه زغبا
حتى اذا آض كالفحّال شذّبه
أبّاره ، ونفى عن متنه الكربا
أضحى يمزق أثوابي ، ويضربني
أبعد ستين عندي يبتغي الأدبا ؟

وقد يختلف الأبناء في أخلاقهم ومشاربهم في الحياة ، كما يختلفون في سلوكهم . فلا يحمل ذلك الاختلاف آباءهم على اختلاف توزيع الحب بينهم ، وقسمة المحبة عليهم . ففي كل واحد من الأبناء شفاء للقلب . وجلاء للعين ، وتبريد للكبد . والانسان يحب أنفه ولو كان أجدع ، لأنه من جسمه ، ويحب عينه التي رمدت كحبه لعينه التي لم يصبها الرمد . وقد صور لنا الشاعر المهجري الياس فرحات هذه الحالة المفارقة بين ابنيه خالد وعاصم . فخالد الأكبر يبدو وقد ركب رأسه ، واتبع هواه . وعاصم يبدو عاقلا ، بعيد المطامح ، مهدي السلوك . ولكن ذلك لم يمنع شاعرنا من تقسيم الحب بينهما على سواء :

فلا خالد متعسي بالضلال
ولا عاصم بالهدى مسعدي
ولا فرق عندي بين الغدير
أو الجدول الراكض المزبد
ففي ذا وفي ذا شفاء القلوب
وتبريد صادية الأكبد
وعيني التي أرمدت ، حبها
كعيني التي بعد لم ترمد ...

وهذا منطق سويّ سليم تمليه الأبوة الحانية الرحيمة التي لا تجور في الحب بحال من الأحوال .

وقد يتخذ شاعر من ميلاد ابنه مناسبة للتعبير عن رأيه في فلسفة الحياة . فحين رزق الشاعر المهجري « ندرة حداد » بكر أولاده ، استقبله بقصيدة يقول فيها :

جئت يا ابني مثلما والدك المسكين جاء
جئت دنيا كلما محصتها زدت ازدراء
واذا ازددت بها معرفة زادت خفاء

وحين مد الله ظلال نعمته على الشاعر أحمد رامي بولد له ، استقبل هذه النعمة بقصيدة عنوانها : « يا بني » يقول فيها :

يا بني ! ما أحيلى يا بني
أنت ظل مده الله علي
نعمة العمر وتذكار الصبا
والأماني التي عزت لديّ
لست أنساك جنينا خافيا
في ضمير الغيب أدعوك إليّ

واذا أصيب أحد الأبناء بوعكة ، أو وخز ابرة ، أو كابد عملية جراحية ، أسرع والده الشاعر بالتعبير عن انفعالاته ، كما نجده عند الشاعر المهجري جورج صيدح ، حين كان الجراح يجري مبضعه في أحشاء ابنته لاستئصال الزائدة الدودية ، فتنجلي هذه المجزرة الصغيرة عن قصيدة عظيمة ، يقول فيها الوالد الممزق نياط القلب :

رفقا بها يا مبضع الجراح
شرحت قلب الوالد الملتاح
ان زدت إيلاما فضحت تجلدي
وجمعت بين صياحها وصياحي
والله لو أطلقت روحي لارتمت
تحت النصال تصدها بجراحي
هذي القطاة ، قصاصة من ريشها
تكفي اذا انتثرت لقص جناحي !

ولنا في هذا الباب قصيدة بعنوان « ليلة » حين اشتدت العلة بولدنا « نبيل » جاء فيها :

يا رب ! هذا الغصن ما ذنبه
وما جناه الغصن حتى يمال ؟
وهذه الأعين ما بالها
باهتة الاشعاع مثل الذبال

وهل يغيب البدر عـــن أفقنا
ولم يجاوز بعد عمر الهـلال

وقد تثير مناسبة سعيدة في نفس الأب الشاعر مشاعر جميلة ، كما فعل الشاعر عدنان مردم حين هش ولده الصغير مصفقا ومصوبا نظره اليه ، فقال في قصيدة عنوانها « ولدي » :

لما هششت مصفقا وعطفت نحوي تنظر
وهززت مني خافقا من رحمة يتفطـر
وأسلبت من عيني الحنان مدامعا تتحـدر

وكذلك فعل الشاعر العوضي الوكيل حين بدت أمامه ابنته «شفق» في ثوبها الأحمر القصير ، وقد زانت رأسها وردة حمراء ، فقال :

كلما شمتـه عليك أصيلا
ملأت نفسي المعانـي الوضاء
أنت فيــه كطائر نزل الــرو
ض نضيرا ، فمشيه خيـلاء
والغديــر الــذي برأسك قـ
ـد سال وزانتـه وردة حمراء
شاقني عــذب مائـه فدعيني
أتمتـع بلثمــه مــا أشـاء

ويجد الآباء في أبنائهم واحة في صحراء الحياة وجنة وارفة الظلال في هجير الزمان ، كما يتلقّون عليهم دروس الحب والصفح والغفران . وهذا شاعرنا عدنان مردم يقول مخاطبا ولده :

أجد الدنيا عــلى علاتهـا
بك جنات ، وان جار الزمان
ويهون الصعب حـتى يستوي
منك في الحالين قسرٌ وليــان
لــم أكن قبلا لأنسى تـرةً
عــن مسيء وبكفّــي سنان
كنت أجــزي الشر بالشر ولا
أستطيب السلم ان جــد الطعان
فتراني اليوم أبكي ظالمــي
من حنان ، ويدي ــ الدهر ــ أمان

والأبناء استمرار لدورة حياتنا ، ووصل لما بين أسلافنا وأخلافنا . وقد يرى الانسان في ابنه أباه ، كما يرى في وجه ابنته وجه أمه . وقد أحسن التعبير عن هذا المعنى الشاعر أنور العطار في قصيدته « بنيتي » التي يقول فيها :

صورة أمــي سربت في دمــي
وانبثقت مــن طفلــتي باديـه
بُغامهـا وشوشَ فــي مسمعـي
وطـاف في مهجتي الصابيه
اذا تطلعــت الى وجههـا
رأيــت أمي مــرة ثانيــه !

وما صور شاعر عربي عبث الوليد ومرحه ووثبه ، واختلاف حـاليه بين الصد والاقبال ، والأمان والغدر ، كما فعل الشاعر ابراهيم عبد القادر المازني في قصيدته « محمد وعزوز » يصف فيها حالات ولده « محمد » ، بارك الله في عمره ، ويوازن بينه ، وبين الطفل « عزوز » ابن أخت عباس محمود العقاد قائلا :

عباس ! ان ابني لـي مفـزع
من وحشة العيش ومــن نُكره
يؤنسني فــي وحشتي هــذه
فلا عدمت الأنس من هـذه !
ووثبــه بــين ألاعيبـــه
وكلهـا أكبر من قــدره ..
وضربــه هــذا ، وتقبـيل ذا
وكلــهــم ساع الى بــرّه
وصده طــورا ، واقبالــه
وليس ما يدعــو الى غــدره
يركـب ظهري غـير مستغفر
حُبّ بــه طفلا على كبره !
مستهــتر لا يتــقي قالــة
ولا يبـالي النــاس من شره !

وركوب الأبناء ظهور آبائهم ، وارتحالهم اياهم ، مألوف في مآثر البنوة . فقد كان النبي عليه السلام يسجد مرة ، فجاء الحسين ابن بنته فاطمة وركب عنقه ! فأطال النبي السجود حتى ظن أصحابه أنه قد حدث أمر . فلما فرغ من الصلاة سألوه ، فأجاب : ان ابني قد ارتحلني ، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته !

واذا كان الأبناء فرحة الدنيا وزينة الحياة ، فان فقدهم هو الرزء الذي لا رزء بعده ، فهو يقصم الظهر ، ويهشم الضلوع ، ويستنزف الدموع . وما حفل شعر أمة كما حفل شعر رثاء الأبناء في الأدب العربي . فالمعتمد بن عباد الخليفة الأندلسي الشاعر يرثي أبناءه سعدا والمأمون والراضي . وهي مراث يحتويها ديوانه المطبوع أخيرا . وابن الرومي يرثي ابنه محمد بالقصيدة الدالية المؤثرة التي يقول فيها :

توخى حمامُ الموت أوسطَ صبيتي
فلـله كيف اختـارَ واسطة العقد !
على حين شمتُ الخير مــن لمحاته
وآنستُ من أفعالـه آيـة الرشد
طواه الردى عني ، فأضحى مـزاره
بعيدا عــلى قرب ، قريبا على بعد

ويقول فيها عن الأولاد :

وأولادنا مثل الجوارح ، أينـا
فقدناه كان الفاجـع البين الفقد

والشاعر التهامي يرثي ابنه محمدا وقد مات صغيرا بأكثر من مرثية ، منها رائيته المشهورة التي يقول فيها :

حكم المنية في البريـة جـار
ما هــذه الدنيا بدار قــرار
بيـنـا يُرى الانسان فيها مُخبِرا
حتى يُرى خبَرا مــن الأخبار

والشاعر الحصري القيرواني صـاحب قصيدة « يا ليل الصب متى غده » رثى ولدا له مات صغيرا بقصائد كثيرة تشتمل على ٢٥٩١ بيتا يضمنها ديوان واحد عنوانه « اقتراح القريح ، واجتراح الجريح » وليس هذا هو الديوان الوحيد في رثاء الأبناء في الشعر العربي ، فهناك ديوان كامل برمته للشاعر المهجري زكي قنصل في رثاء ابنته «سعاد».

والشاعرة عائشة التيموريــة ترثي ابنتها « توحيدة » ، التي عاجلتها المنية في بواكير الشباب ، بقصيدة رائية مشهورة ، والشاعر المهجري جورج كعدي يرثي ابنته « ثريا » حين اختطفها الموت في ثالث أعوامها ، والشاعر محمد مصطفى الماحي يرثي صغرى بناته «هدى».

وصفوة القول أن الأبناء ، ذكورا وأناثا ، كانوا وسيظلون مصدر إلهام للشعر العربي منذ المهد الى اللحد ■

الرسالة الخالدة

للشاعر محمد حسن عواد

أيها الدهر ! ويك ، لو تتفهّم   أو تجيد الكلام ، أو تتكلم
لرفعت الصوت الجهير الى الدنـ   ـيا وأجراس وقعه تترنم
ثم ناديت ، بالمهابة ، والتـ   ـاريخ يصغي وقلت غير مجمجم :
صفوة المرسلين بلغ أمر الله للناس من الحياة فأنعم
جاء بالصحو ، والخليقة غرقى   في سبات على النفوس تسنّم
جاء للأرض رحمة وسلاما   والبرايا محتارة تتأزم
فاذا باء بالسماوات غنما   فالسماوات دونها كل مغنم
جاء والناس تجهل الخالق المبـ   ـدع جهلا يزيد فيه التبرم
واذا كانت الخليقة لا تعـ   ـرف خلاقها فما بعد تفهم ؟
وفشا مذهب الضلالة حتى   عمم الكون بالآثام والغم
فاستسيغت عبادة اللات والعزى وآزيس ، والخيال المهوم
وتداعت معالم الخلق الفا   ضل وانحط شأنها وتهدم
واستبد القوي واندحر الرا   دع واستعبد الأبي المكرّم
واحتمى الظلم بالعدالة تدليـ   ـسا على الخير ، والعدالة أظلم
وسرت في الأنام فوضى فمادت   بالمقاييس موجة تتهزم
ظلمات تعج بالخوف والقفر   وبث الأذى وما هو أعظم
فتجلى على الخليقة رب العرش يزجي الرضا العظيم ويرحم
فحبا للورى النبي وأعط   اه ضياء من الهدى فتقدم
شع فيهم كأنه فلق الصبح اذا انشق والدجى بعد أدهم
فأنار العقول بالمشعل الوهاج ، يستقشع الظلام المخيم
فاذا الكافرون وهم الفصاح اللّسن حول الكتاب فدْم وأعجم






يغذى نبات الفستق بمخصبات تحتوي نظائر ، وذلك لدراسة درجة امتصاص النباتات لهذه المخصبات بالنسبة للنمو ، وتقاس النظائر بواسطة عداد «جيجر».

الأسمدة الذرية

تحيل الصحاري الى أرض خصبة

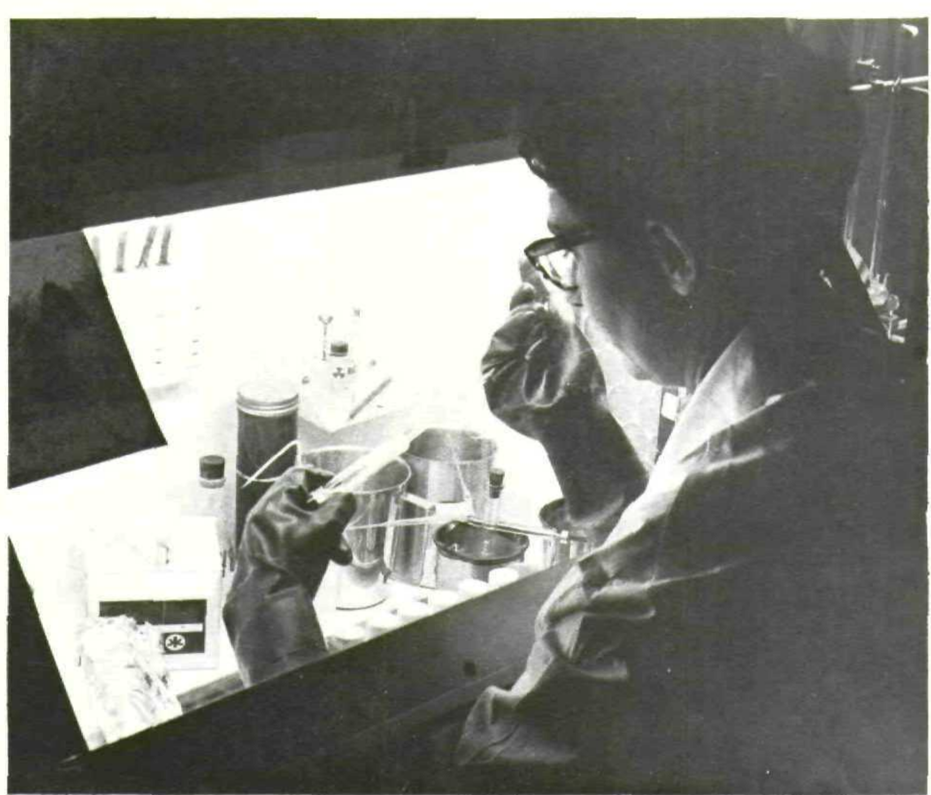
بقلم الدكتور نقولا شاهين

تهتم شعوب الأرض قاطبة في حل مشكلة أساسية رافقت الانسان منذ فجر التاريخ .. ألا وهي مشكلة تأمين المواد الغذائية للجميع ، وإبعاد شبح المجاعة عنهم . فالانسان في مقدوره أن يتحمل النقص في كثير من مقومات الحياة ، كاللباس والأثاث والسكن وغيرها ، الا أنه من الصعب عليه أن يتحمل النقص في الطعام مدة طويلة . وليس من أمر أشد وقعا على الانسان من رؤية أفراد وجماعات يتضورون جوعا .

ومعلوم أن عدد السكان في أنحاء العالم كافة يتزايد بشكل لا نظير له . فقد بيّنت الدراسات الاحصائية لدى منظمة الأمم المتحدة ، انه في عام ٢٠٠٠ ميلادية سيصبح عدد سكان العالم نحو ٦٠٠٠ مليون نسمة ، بعد ان كان حوالي ٣٠٠٠ مليون نسمة في عام ١٩٦٠ ، وسيرتفع الى ١٥٠٠٠ مليون نسمة في عام ٢٠٦٨م . فهذه الأرقام المذهلة تعطينا صورة واضحة عن مدى تضاعف عدد سكان االعالم خلال المائة عام المقبلة حيث سيواجه العالم ، ولا شك ، مشكلة عظمى في توفير الغذاء لهؤلاء البلايين من البشر .

ونتيجة لذلك أخذ الخبراء يوالون البحث عن مصادر للثروة الغذائية ، كبناء السدود الضخمة التي تساعد على تأمين الماء اللازم لاستصلاح الملايين من الفدادين ، وإيجاد أسمدة طبيعية أو كيميائية ، تسهم في خصوبة الأرض ، واغناء تربتها بما تحتاجه من غذاء .. فبعض المزروعات يفتقر الى النيتروجين ، وبعضها الى البوتاس ، وبعضها الى الفوسفور .

لقد كانت العصور السابقة حافلة الى حد ما بالاختراعات والاكتشافات ، الا أنه بعد اكتشاف الاشعاع الراديومي في أوائل القرن العشرين أخذت الاكتشافات الجديدة تتزايد بشكل مطرد في حقل العلم والابتكار ، وأصبح حقل الاختصاص ضيقا للغاية كي يتسنى للمنقبين أن يسبروا غور الحقائق العلمية في حقل ما ، كما غدا التعاون بين العلماء في ربط نتائج الأبحاث النظرية والعملية أمرا ضروريا . وكان من أكبر أهداف العلماء ايجاد مصادر غذائية جديدة دون الاستعانة بالنباتات الخضراء . وقد اتخذوا من ظاهرة التركيب الضوئي خطوة أولى لدراساتهم . ونعني بذلك مقدرة الخلية النباتية من خزن الطاقة الضوئية المستمدة من الشمس بصنع مركبات جديدة ، معتمدة في ذلك على مادة اليخضور « الكلوروفيل **Chlorophyll** » التي تفصل الأوكسجين عن



اخصائية في علم الطبيعيات تقوم بعملية نقل بعض المواد المشعة التي تساعد رجال الأبحاث على تعقب تحركات الماء خلال مسامات التربة والنبات ، وذلك بغية تحسين التربة وزيادة الانتاج .



تلعب مراكز الأبحاث الزراعية في عصرنا الحاضر دورا كبيرا في تحسين مراحل نمو النباتات . وها هي احدى الاخصائيات أثناء قيامها ببعض التجارب على نباتات معينة في أحد المختبرات الأمريكية ، للغرض نفسه .



اثنان من علماء التربة أثناء قيامهما بتجربة أشعة جاما ، وهي احدى الوسائل العلمية المستحدثة ، في قياس وتسجيل كثافة الرواسب المتراكمة في قاع أحد الأحواض المائية ، وذلك لتحديد نسبة التفتت ومعرفة طاقة الخزن لدى الحوض .

ثاني أكسيد الكربون بعد تحويله الى سكر .. الغذاء الأساسي للنبات . فاذا توصل الانسان الى صنع هذه المادة الخضراء ، فانه يسهل عليه أن ينتج المواد الغذائية الضرورية دون الاعتماد على النباتات الخضراء .

وقد توصل العلماء الى نتائج لا بأس بها في هذا المضمار ، وذلك بتغذية نباتات خضراء ذات خلية واحدة ، بواسطة ثاني أكسيد الكربون المشعّ ، فنتج عن ذلك مادة لا تتغير في الظلام . لكنها لدى تعرضها الى نور الشمس تتحول الى سكر ومواد نباتية أخرى . وقامت دراسات واسعة في هذا المجال استمرت سنين عديدة كانت نتيجتها عزل الجزء الدقيق الذي يقوم بالتحليل الضوئي في النباتات ، وهو جهاز ميكروسكوبي في داخل خلايا النباتات الخضراء يحتوي على اليخضور ، المادة الأساسية في عملية التحليل الضوئي . ويعد هذا الاكتشاف من أهم ما توصل اليه العلماء ، اذ أنه يعتبر خطوة كبيرة ، بل وسيلة لانتاج المواد الغذائية دون اللجوء الى التربة .. وهو الحلم الذي يسعى العلماء الى تحقيقه .

وقد كان الاعتقاد السائد قديما أن الجذور هي الممر الرئيسي للمواد الغذائية ، في وصولها الى أجزاء النباتات المختلفة . أما اليوم فقد ثبت عن طريق النظائر المشعة ، أن الأوراق والأغصان تعتبر أيضا مسالك مهمة في ايصال المواد الغذائية الى داخل النباتات . ويقول الخبراء أن سطح أوراق شجرة تفاح عمرها ١٢ سنة ، يغطي مساحة من الأرض تبلغ جزءا عن عشرة أجزاء من الفدان . وان هذه الأوراق تستطيع أن تمتص بعض المواد بالنسبة نفسها التي تمتصها الجذور . لذلك أصبح في مقدور المزارعين أن ينثروا بعض المخصبات فوق أوراق الشجر . وقد أثبتت الأبحاث أن وضع المخصبات في داخل الأرض حول الشجر يكون في الغالب قليل الفائدة ، ويتطلب استخدام كمية أكبر من المادة المخصبة ، فضلا عن زيادة التكاليف في هذه الطريقة .

لقد استطاع العلماء بفضل النظائر المشعة أن يتوصلوا الى أن المقادير الضئيلة من المواد المعدنية تؤثر على نمو النباتات من نواح عديدة هامة . فبدون توفر معدن « الموليبدنيوم » ، لا تستطيع النباتات أن تمتص ما يكفيها من النيتروجين . أما في حال احتواء النباتات على مقدار أكبر من هذا المعدن ، فانها قد تؤدي الى اصابة الحيوانات التي تتناولها بأمراض خطيرة . وهكذا نرى أن الذرات المستخلصة من النظائر المشعة ، قد ساعدت العلماء في تحديد كمية المواد المعدنية التي يحتاج اليها النبات كي ينمو نموا سليما .

وعلاوة على ما تقدم من تطبيق الاشعاع الراديومي على النباتات ، توصل رجال الأبحاث الى امكان استخدام الأسمدة الراديومية لإخصاب أرض شاسعة كانت قبل ذلك لا تصلح للزراعة . واعتمدوا على بعض العناصر المشعة – كالفوسفور (٣٢) – في دراساتهم لوسائل التغذية عند النباتات ، والصعوبات التي تعترض نموها .

ومن بين النتائج التي توصلوا اليها في هذا المضمار هي ، أن بعض أنواع الحبوب تحتاج الى عنصر الفوسفور (٣٢) في الأيام الأولى من نموها ، بينما تحتاج البطاطا الى العنصر نفسه طوال فترة نموها . ولذلك فقد وضعوا لكل نوع من نباتات الحبوب خرائط ورسوم بيانية تبين مقدار ما يلزمها من الكلس والبوتاس والنيتروجين والفوسفور . وقد اتخذت هذه الرسوم البيانية أساسا لتطوير الحقول والمزارع وتحسين منتجاتها . وفي أحد الاختبارات التي أجريت في جامعة « كورنيل Cornell » الأمريكية ، تبين أن استخدام الكلس المشعّ مع الكلس التجاري يوفر على المزارعين قسما كبيرا من النفقات التي ينفقونها على تحسين مزارعهم (نحو مائة مليون دولار سنويا في أمريكا) .

ويأمل ذوو الاختصاص في علم الزراعة ، أن يستصلحوا باستعمال النظائر المشعة نحو ألف مليون من الدونمات ، غير الصالحة للزراعة حاليا ويحيلوها الى أراض غنية تنتج الحبوب وغيرها من المواد الغذائية . كما أنهم يرون أنه بالامكان زراعة البحر بنباتات غنية بالمواد الدهنية والبروتينية وغيرها . ومن هذا نرى أن الاشعاع الراديومي سيكون وسيلة فعالة لدراسة حياة النبات دراسة تفصيلية تعود بالنفع على الانسانية جمعاء .

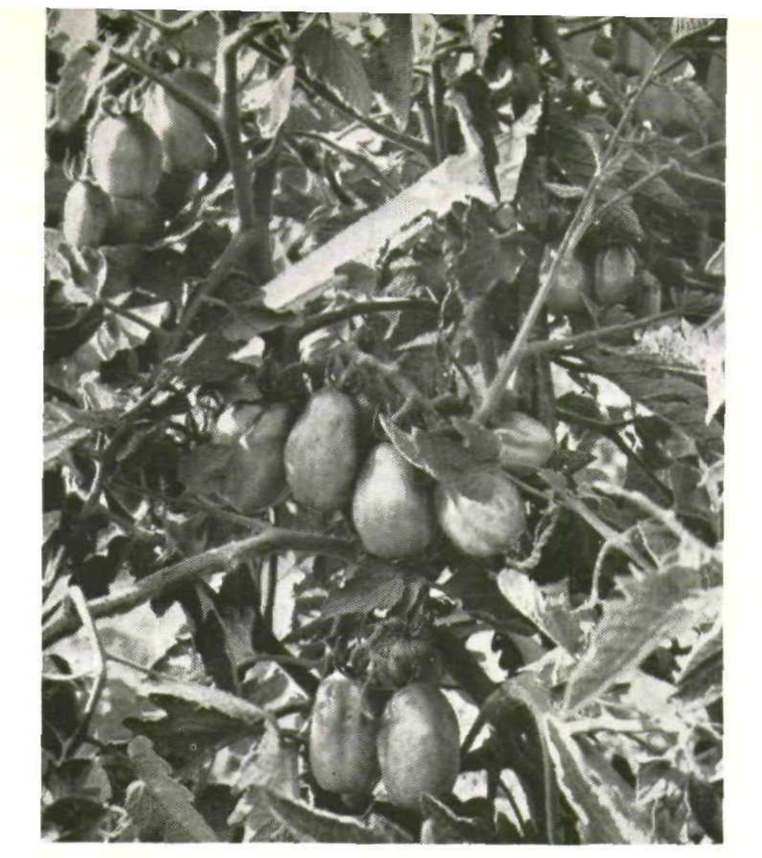
يتصور البعض أن مجرد ري قطعة من أرض صحراوية يحيلها الى بقعة صالحة للزراعة ، لكن الأمر ليس خاليا من التعقيد ، اذ أن المياه التي تبعث الحياة في الصحراء تتسبب أيضا في تسمم أرضها اذا كانت تحتوي على مواد مختلفة ذائبة فيها . ومن أكثر هذه المواد شيوعا « الملح » . والأمر الأساسي في معالجة الأراضي التي تكثر

فيها الأملاح ، هو تحديد محتوى الملح فيها بالضبط . وعلى ضوء هذه الدراسة تجري عملية استصلاحها . ويستخدم العلماء في الوقت الحاضر معدن الذهب بعد أن يزود بالاشعاع ١٠٠ ، ويعرف باسم الذهب ١٩٨ . فعندما يمزج هذا المعدن بمياه الري ، يصبح بالامكان قياس كمية المياه التي تتسرب الى داخل التربة ، وذلك عن طريق ما ينبعث من الذهب المشع من اشارات لاسلكية ضعيفة كدليل عن كميات الملح الموجودة في التربة . والذهب ١٩٨ المشع هو أفضل وأرخص ما وجد حتى الآن لهذا الغرض .

تعتبر استراليا في مقدمة الدول التي لجأت الى استصلاح أكبر مساحة ممكنة من الأراضي غير الصالحة للزراعة . اذ بدىء في عام ١٩٥٠ بتنفيذ مشروع جاد يهدف الى انشاء مزرعة كل اسبوعين تقدر مساحتها بنحو ٤٠٠٠٠٠٠ متر مربع ، من أرض صحراوية طولها نحو ١٥٠٠ كيلومتر ، ظلت جدباء قاحلة على الرغم من أن معدل ما يسقط من المطر فيها كان نحو ٥٠ سنتيمترا ، وهذا يلائم طبيعة استراليا ، الجافة نوعا ما ، كما يلائم كثيرا من أنواع الحبوب . وقد أظهرت الدراسات أن ضعف نمو بعض النباتات في تلك البلاد راجع الى نقص في مادة الزنك ، وان نباتات أخرى كانت بحاجة الى النحاس . فلما أضيفت كميات صغيرة من هذين العنصرين الى أحواض الاختبار ، نشطت النباتات وأعطت محصولا جيدا . وقد غدت تلك الصحراء أرضا صالحة لزراعة الحبوب ومرعى للماشية ، بعد أن ظلت لقرون خلت أرضا قاحلة مجدبة .

أما الأغنام في استراليا فكانت محدودة النمو ، ومعرضة لأمراض غريبة ، كما ان صوفها تحول الى صوف خشن . ثم اكتشف علماء الزراعة والحيوان أن المرض الذي لحق بالأغنام هناك كان سببه افتقار التربة الى عنصر الكوبالت ، وعندما مزجوا غذاء الأغنام بقليل من الكوبالت زال ذلك المرض كليا ، ولم يبق له أثر .

لقد نشطت بعض الدول العربية وأظهرت اهتماما جديا ، في سبيل استصلاح أجزاء من الأراضي الصحراوية الشاسعة ، منها المملكة العربية السعودية . كما أظهرت بعضها اهتماما خاصا بالدراسات الذرية والراديومية ، مجارية سنة الارتقاء وهي تسير في قافلة الحضارة . وليس بعيدا أن يتحول قسم كبير من أراضي الصحراء العربية الى أراض خصبة نتيجة لذلك ■



بذور معقمة ذريا أعطت هذه النبتة النشيطة ، وهي تحمل ثمار الطماطم اللذيذة الطعم .



نبتة من الذرة ، عقمت بذورها ذريا ، فنمت بسرعة وأثمرت هذه الأكواز النضرة .

الأدب العربي في ظل الاسلام

بقلم الاستاذ محمد احمد مشهور الحداد

ان الباحث المدقق في تاريخ الأدب العربي يجد فيه ارتباطا شديدا بالتاريخ الاسلامي وأطوار تشريعه ، فالدين ، كرسالة سماوية فحواها نظام انساني ، ينظم الحياة السامية بنظم أصيلة تتكيف في تحقيق المصلحة العامة واسعاد البشرية جمعاء .

ومهمة الأدب في حياة الأمة التي ينسب اليها ، التعبير عن حاجة أفراد تلك الأمة الى التوجيه الى كسب أسباب البقاء ، وربطها بواقع ما يعيشونه من ألوان الحياة . فقد اتخذ الدين الاسلامي من الأدب شكلا وقالبا لمضامينه التشريعية ، وأسلوبا مقنعا في دعوته ، وتوضيح أهدافه ومناهجه ، التي برزت في أطر جميلة من الكلام المعجز والقول البياني البليغ ، الذي يهيمن على العقل السليم بالاقناع ، وعلى العاطفة الثرة بسمو معانيه وفصاحة مبانيه . ومهما قيل في تصوير الأدب العربي قبل الاسلام وانطباعه بطابع الجهالة من حيث الصورة والمعنى ، فما ذاك الا لأنه كان صورة صحيحة وجلبابا قُدّ على مقدار ما صاحب حياة العرب في العصر الجاهلي من العيش المحصور في أحضان الصحراء بقيظها اللافح ورياحها الهوج . بيد أن ذلك لا يمكن أن ينقص من قيمة الحقيقة القائلة بأن العصر الجاهلي كان من أرقى العصور الأدبية ، فقد كان الجاهليون يفاخرون بخطبائهم وشعرائهم ، وكان الخطيب أو الشاعر هو الدافع الذي يحرك حمية القبيلة ، ويبعث في النفوس رغبة الكر وشعور الاستعلاء على الخصوم والأنداد .

وكان الجاهليون يقيمون الأفراح أياما اذا نبغ فيهم الفارس احتفاء ببطولته ومهارته الحربية ، بينما كانوا يقيمون الأفراح شهورا اذا نبغ فيهم شاعر ، يكون لسانهم المعبر وسفيرهم المفاخر بأيامهم ، والمترنم بأمجادهم ومكارمهم ، وقد لهج بنو تغلب بمعلقة عمرو بن كلثوم ، الملحمة العربية ، التي سجلت صفحة مشرقة في الدفاع عن الكرامة والذود عن حياض مجد القبيلة ، وتبديد أوهام من طمع في استذلالهم . فكانت تلك المعلقة شغلهم الشاغل ومثلهم الأسمى .

ان هذا التقدير للشعراء والخطباء هو أكبر دليل على ازدهار الحياة الأدبية في العصر الجاهلي في مضماري النثر والشعر . وان كان معظم النثر الجاهلي يرسف أحيانا في قيود السجع الذي يعوقه عن الاسترسال والسهولة ، فان بعضه مقبول لا ينبو في السمع ، اذ تزدوج فيه رشاقة تركيب الجمل ، وتساوق معانيها ، وانسجام مفرداتها ، وسلامة مبانيها ، كخطبة قس بن ساعدة التي تمثل شعرا منثورا ذا سمات متلائمة ، أخذت بعضها بعناق بعض ، كأنما صهرت في بوتقة واحدة ، أو سكبت في قالب متحد .

والشعر الجاهلي هو الآخر لم تكن صبغته العامة من الجهامة والوعورة التي لا مندوحة له عنها ، بل ان الكثير منه جمع الرقة والطلاوة في الصورة الأدبية والجزالة في المعنى ، بالاضافة الى تصويره للعاطفة تصويرا يغمر النفس نشوة ودفئا .

وفي شعر الشعراء البكائين يتوفر الشيء الكثير من هذه العناصر الفنية ، كشعر دريد بن الصمة في رثائه لأخيه ، وشعر الخنساء في رثائها لأخيها صخر ، وشعر جليلة بنت مرة في رثائها لزوجها كليب . أضف الى ذلك غلبة الصنعة الفنية في حوليات زهير بن أبي سلمى ، وبعض القصيد النزر لبعض شعراء تلك العصور . وهي ظاهرة حدت ببعض الكتاب المتطرفين الى التشكيل في هذا اللون من الشعر ونسبه الى بعض الرواة . وهو وان كان تشكيكا ناشئا عن الحذر والتيقظ ، الا أن محاولة بعض الكتاب في جعله حكما عاما ، وقبوله كقضية مسلمة ، أمر يدعو الى التردد في قبوله لإيغاله في الشطط . وربما كان دافعه الغمط من هذا التراث الذي نعتز به .

ولنعد الى بحث العلاقة بين الدين والأدب ، وهي علاقة ذات جوانب متعددة . فالاسلام اعتمد على الأدب في حلبة النقاش بين التوحيد والوثنية ، وقد أقام دعوته على أساس مقارعة الحجة بنظيرتها ، وذلك مما يقتضي اتخاذ أسلوب ناجع في بلورة الحقائق في أنصع مظاهرها . ولا بد أن يكون هذا الأسلوب ، الذي يراد منه اداء هذا الغرض ، من قبيل ما ازدهر من أدب رفيع في ذلك العصر ، فكان هو التنزيل السماوي ، الذي تحدى العرب ببلاغته ، وأدهشهم بما تكامل فيه من ضروب البيان ، الذي تقاصر عن بلوغ شأوه انتاج مواهبهم الفطرية ، فخروا سجدا لفصاحته ووقفوا حياله مبهورين . ومن ذلك أن لبيدا أحجم عن قول الشعر بعد اسلامه ، فلم يقل شعرا عدا هذا البيت :

الحمد لله اذ لم يأتني أجلي
حتى لبست من الاسلام سربالا

ويحدثنا البغدادي عن الخليفة عمر ابن الخطاب ، وقد كتب الى عامله المغيرة ابن شعبة أن يوافيه بما استجد في ولايته من الشعر ، فطلب المغيرة من الشاعرين « العجلي » و « لبيد » أن يكتبا ما قالاه من الشعر ، فكتب العجلي قصيدة مطلعها :

أرجزاً تريد أم قصيدا
لقد طلبت هينا موجوداً

أما الشاعر لبيد ، فذهب الى بيته ، وكتب سورة البقرة ، وأرسلها الى المغيرة ، وأردف قائلا : « لقد عوضني الله بهذا عن الشعر » فبلغ الخبر الى الخليفة ، فأنقص من عطاء العجلي ستمائة درهم ، وأضافه الى عطاء لبيد ، فتشفع اليه العجلي بقوله « انما أطعت أمرك ! » فأعاد اليه ما نقص من عطائه ، ولم يرزأ لبيدا من الزيادة المضافة اليه .

وظهر اعجاب الشعراء وتأثرهم بالأساليب القرآنية في استشهادهم ببعض الآيات في انتاجهم ، ومحاولتهم محاكاة أساليب القرآن البلاغية . وطغت المصطلحات التي أحدثها الاسلام في اللغة على الانتاج الأدبي ، واخضل روض اللغة العربية ، وتفتحت عن مواد جديدة أينعت وطاب

جناها ، وخطت بالأدب العربي عتبة تاريخ جديد ، وحلق الخيال الأدبي في سماء دنيا جديدة عامرة بالحضارة والفكر والتطور . وكما وجد الأدب روافد معطاءة زودته بالقيم الجمالية ، فقد كان يكفيه فخرا ان أشاد الدين بقيمته ، ونوه بقدره حين اتخذ منه سلاحا يرد به سلاح أعدائه ، من ألسنة حداد ، غرثى من شرف الصدق والحقيقة . فقد نالت تلك الألسنة من الاسلام ونبيه ، فانبرى للدفاع عنهما جهابذة الشعر وكماة عرينه : حسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وغيرهما ، فذادوا عن الرسـول بألسنتهم ، كما كانوا يذودون عنه بأسلحتهم ، وأرسلوا نفثات أشعارهم حمما ملتهبة ، فيقول عليه السلام : « والذي نفسي بيده أنها أشد عليهم من الرشق بالسهام . »

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفاخر بالشعر إن دعي الى المفاخرة . فهذا وفد من بني تميم يخاطبه عليـه السلام ، من وراء الحجرات : « يا محمد أخرج الينا نفاخرك » ! فلما خرج اليهم خطب خطيب الوفد مشيدا بمفاخرهم ، وألقى شاعرهم الزبرقان بن بدر قصيدة مطلعها :

نحن الكرام فـلا حي يفاخرنـا
منا المـلوك وفينا يقسم الربـع

ويخطب خطيب الرسول منوها بمحاسن الاسلام ، وينشد شاعر الرسول حسان بن ثابت قصيدة من عيون قصائده ، بدأها بقوله :

ان الذوائـب من فهـر واخوتهم
قـد بينوا سنة للناس تتـبـع

فنكص وفد بني تميم على عقبيه خاسرا في المفاخرة الأدبية ، ويقول قائلهم في ذلك « بأ بي ان هذا الرجل لمؤتى له .. لشاعره أشعر من شاعرنا ، وخطيبه أفصح من خطيبنا . » ولقد كان الرسول عليه السلام يطرب لسماع الشعر ويتذوق مواطن الجمال فيه ، فيقول : « ان من البيان لسحرا ، وان من الشعر لحكمة » . ■

من التاريخ القديم

وردتنا النادرة التاريخية التالية من فضيلة الشيخ محمد نصيف امير الكتب بجدة :

.. وحج في سنة ست وخمسين وستمائة الملك « شمس الدولة توران شاه » ابن والد الملوك « نجم الدين أيوب بن شادي ابن مروان الكردي » ، قدم مكة معتمرا ، وتوجه الى زبيد ، واستولى على ممالك اليمن . ومات بالاسكندرية سنة ست وسبعين وخمسمائة ، فوجد عليه مائتي ألف دينار مصرية قضاها عنه السلطان « صلاح الدين ابن أيوب » ، وسبب هذا الدين كثرة جوده وسعة عطائه .

ومن غريب ما يحكى عنه أن الأديب الفاضل « مهذب الدين أبا طالب محمد بن علي بن الخيمي » قال : رأيت في النوم الملك « شمس الدولة توران شاه » ، وقد مدحته وهو في القبر ميت . فلف كفنه ورماه إليّ ، وأنشدني :

لا تستقلن معروفا سمحت به ميتا وأمسيت فيه عاريا بدني
ولا تظنن جودي شأنه بخل من بعد بذلي ملك الشام واليمن
واني خرجت من الدنيا وليس معي من كل ما ملكت كفي سوى كفني

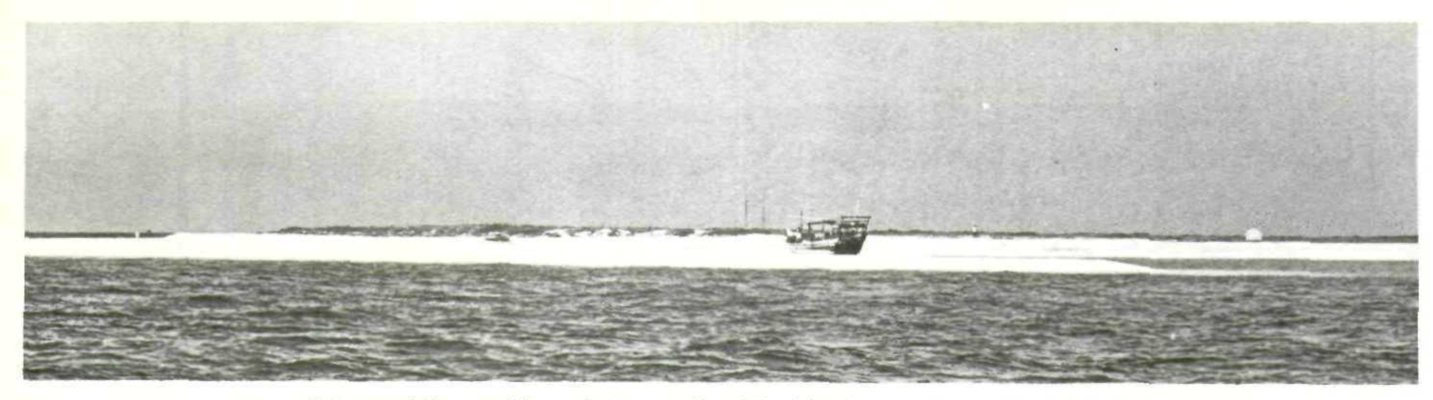
عن كتاب «درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة» ، تأليف عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن ابراهيم الانصاري الجزيري .

جزر في الخليج العربي

تَسْكنهَا الطيوُر وَالسّلاحف الضّخْمَة



حاول أحد الرفاق الحيلولة دون وصول السلحفاة الى الماء ، فحملته على ظهرها وسارت به ، وهي لا تكاد تشعر بما تحمل .



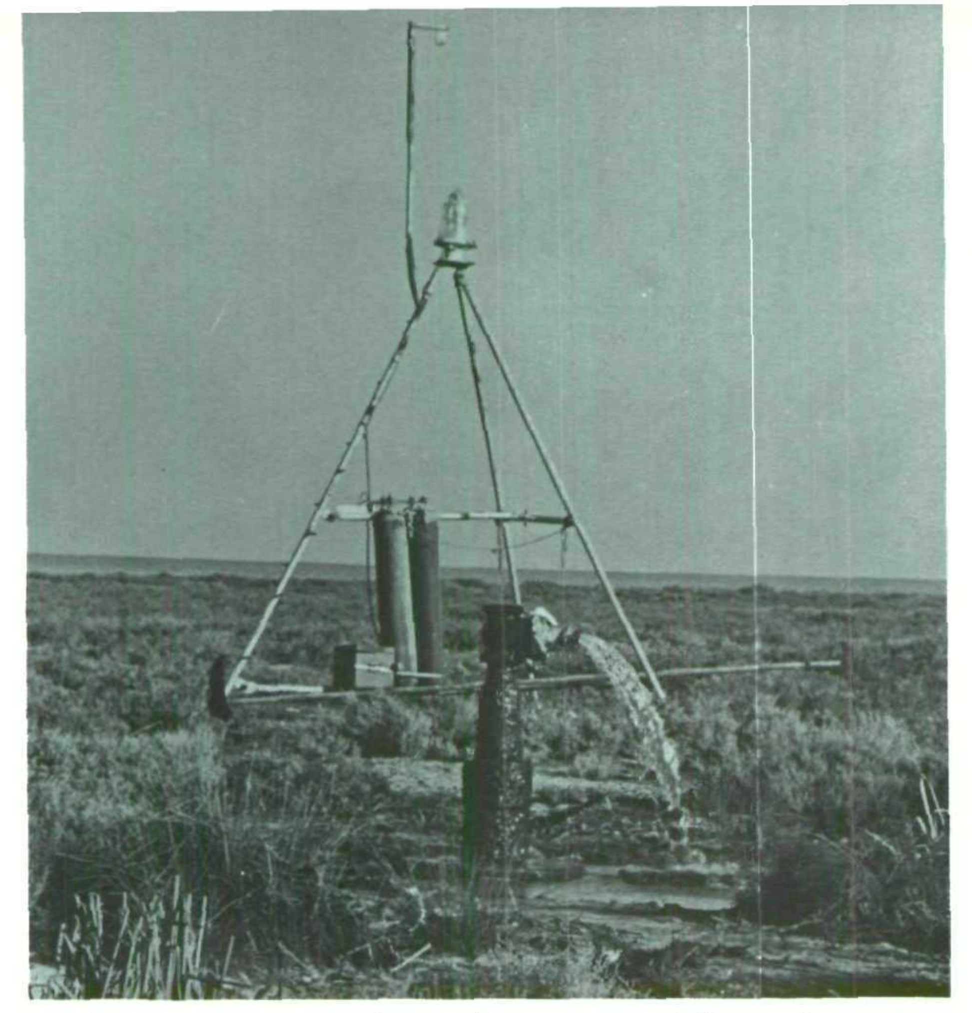
جزيرة جنى وقد بدت من بعيد ، منبسطا رمليا خاليا من البشر ، وقد انحسر الماء تحت القارب نتيجة للجزر .

أسراب الطيور تنعم بالهدوء الذي يخيم على شاطيء الجزيرة .

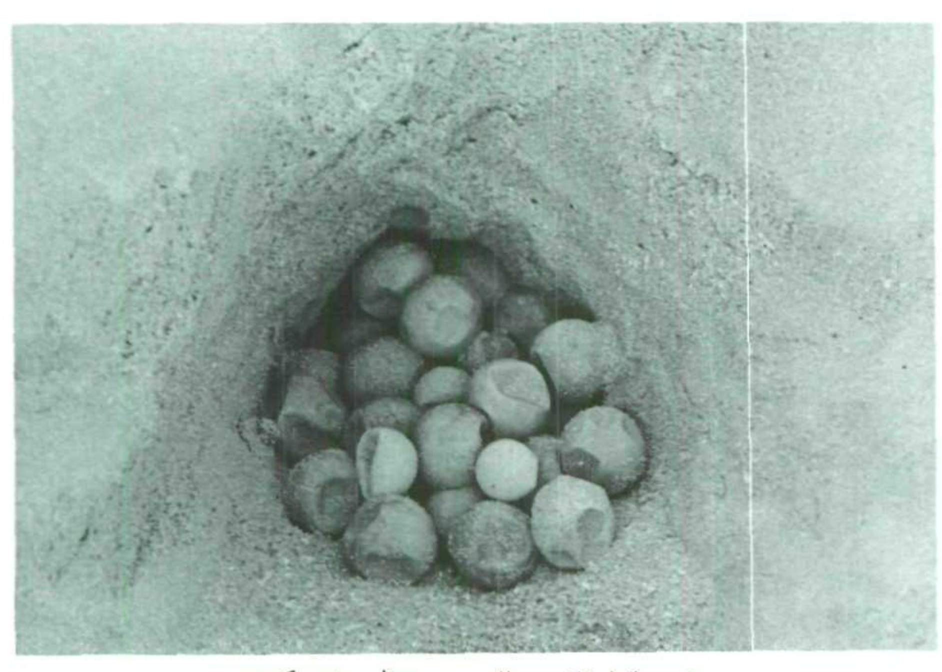
تنتشر في الخليج العربي عشرات الجـــزر الكبيرة والصغيرة .. المأهولة منها وغير المأهولة . وفي مياه المملكة العربية السعودية عدد من هذه الجزر ، احداها مأهولة ومعروفة وذات تاريخ عريق ، وهي جزيرة « تاروت » الواقعة على مقربة من مدينة القطيف ، والتي يمكن اعتبارها امتدادا لواحتها . أما الأخرى فهي جزر مهجورة ، تكاد تكون مجهولة الا لعدد قليل من صيادي السمك والبحارة ورجال التنقيب . ومن هذه الجزر الممتدة من الشمال الى الجنوب في مياه المملكة : حرقوس ، وعربية وكران ، وكرين ، والمسلمية ، وقنة ، وجنى ، وأبو علي ، وجريد ، ولبينة الكبيرة . وأكبر هذه الجزر جزيرة أبو علي التي تنقسم لدى ارتفاع المد ، الى جزئين منفصلين يطلق على الجزء الجنوبي منهما اسم البطينة .

وهذه الجزر شبه المهجورة يقصدها الناس لممارسة هوايات محببة الى نفوسهم كالغوص ، وصيد الأسماك ، أو دراسة الأعماق ، لا سيما وان عددا منها تلجأ اليه أسراب الطيور والسلاحف البحرية لوضع بيضها وتنشئة صغارها في مأمن من غائلة الحيوانات البرية والبحرية الأخرى .

وفي صباح يوم صفت سماؤه وانكسرت شوكة رمضائه ، استقليت وشلة من الأصدقاء قارب صيد أبحر بنا من ميناء الجبيل قاصدا جزيرة « جنى » . وتهادى القارب بادىء ذي بدء متثاقلا في ابحاره حتى بلغ المياه العميقة ، فاندفع عندئذ بأقصى سرعته ، وكأنه يستمد عزمه من شوقنا وحماسنا . ولكن عزمه مهما بلغ ، فلن يمكنه أن يقطع أكثر من عشرة كيلومترات في الساعة ، أي لا بد لنا من قضاء حوالي أربع ساعات في البحر ، قبل أن نصل جزيـــرة « جنى » التي تبعد عن « الجبيل » حوالـــي ٤٠ كيلومترا .



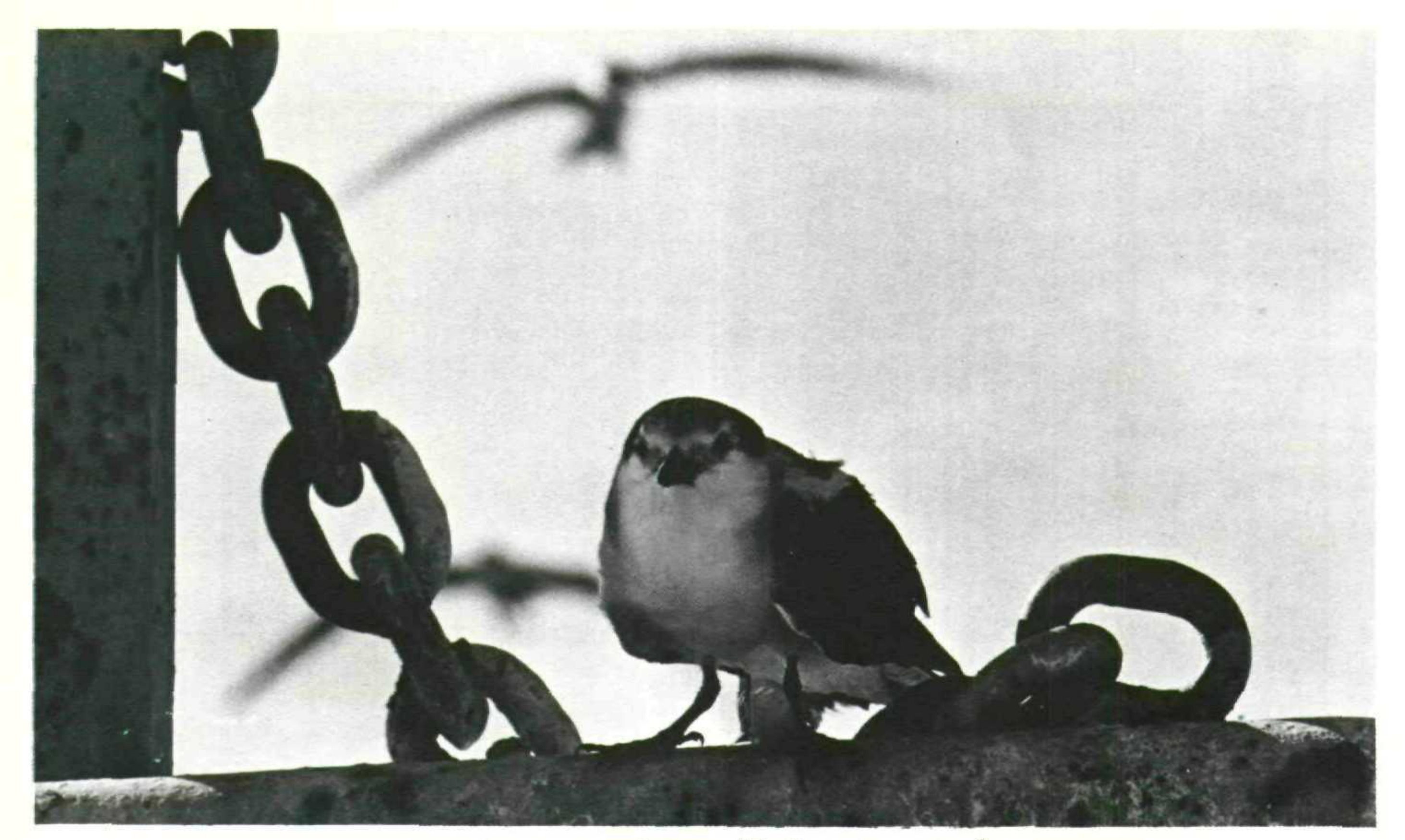
بئر الماء التي حفرتها أرامكو في جزيرة « جنى » أثناء قيامها بأعمال التنقيب عن الزيت في المنطقة المغمورة المجاورة ، حيث عثرت على حقل للزيت ، ويبدو فنار ارشاد السفن خلف البئر .



تضع السلحفاة حوالي ٤٠ بيضةفي حفرة كبيرة دفعة واحدة ، ثم تهيل عليها التراب ، وتتركها عائدة الى الماء وفي عينيها دمعة حائرة .

ومن المعروف أن الخليج العربي يزخر بأكثر من مائتي نوع من الأسماك ذات الأشكال والألوان والأحجام المختلفة ، منها الأسماك الصغيرة الحجم كسمك سلطان ابراهيم وسمك البوري ، والأسماك المتوسطة الحجم كالكنعد والهامور ، والأسماك الضخمة كالحيتان والدرافيل والقرش وغيرها . وفي الخليج العربي أيضا أسماك زاهية الألوان كالأسماك الملائكية ذات الزعانف التي تنشرها كالأجنحة ، وعرائس البحر الجميلة ، والسمك الببغائي المرقط بالأصفر والأحمر والأخضر والأسود ، وأسماك لها أجسام تعكس الضوء كالمرايا . وغيرها من الأسماك الأوقيانوسية شبه الشفافة . والى جانب الأسماك الخلابة الألوان ، هنالك أنواع أخرى من الأسماك تقضي معظم وقتها نائمة في الشمس ، وأخرى تعرف بحمير الوحش المرقطة ذات الأشواك الخطرة المميتة . ولعل أخطر حيوانات الخليج هي الأفاعي التي يقال أن فعالية سمها أقوى بـ ٥٠ مرة من سم أفعى الكوبرا المشهورة ، ولكنها رغم ذلك كله جبانة رعديدة .. ونادرا ما تهاجم الانسان . في حين أن ألد أعداء الانسان والأسماك في مياه الخليج هي أسماك القرش ، بأنواعها . وأخطرها على الاطلاق ذلك النوع الذي يشبه رأسه شكل المطرقة والذي يعتبر أسرع أنواع سمك القرش حركة .

وفي حديث عن مهنة الصيد وأنواع السمك التي يكثر وجودها في مياه الخليج العربي ، قال أحد بحارة القارب : « تختلف مناطق صيد الأسماك باختلاف أنواعها ، فالأسماك الصغيرة الحجم يجري صيدها عادة في المناطق الصخرية القليلة العمق حيث تأمن غائلة الأسماك الكبيرة ، بينما يجري صيد الأسماك الكبيرة كالهامور والسبيطي والفسكر في المناطق الصخرية العميقة المياه ، في حين يكثر وجود سمك الزبيدي والربيان في المناطق الطينية . أما الأسماك المتوسطة الحجم كالكنعد والقفدار وغيرها ، فليس لها أماكن معينة ، بل انها تنتقل من مكان الى آخر بحثا عن الطعام . ولا يكثر وجود الكنعد في الخليج الا في الشتاء ، لأنه في أيام الصيف يهاجر الى بحار أخرى هربا من الحرارة . وتستخدم في صيد الأسماك وسائل عديدة مختلفة . ففي المياه القليلة العمق القريبة من الشاطيء تستخدم الشباك العادية ، بينما تستخدم لصيد الكنعد في الشتاء « اللفاح » و « المناصب » . و « اللفاح » عبارة عن عمود خشبي يوضع في مؤخرة المركب ، وتربط فيه



أحد الطيور العديدة التي يكثر وجودها في جزيرة جنى ضاق ذرعا بالوحدة والسكينة فلاذ بقاربنا علنا نحمله معنا الى الدنيا الآهلة .

مجموعة من خيوط اللدائن المتينة التي تحمل في مؤخرتها أجساما تشبه الأسماك الملونة ، وفيها عدد من الشصوص . اما « المنصب » فهو عبارة عن خيوط متعامدة من اللدائن على شكل شبكة واسعة الخروم ، تنصب وتترك في المياه العميقة فتقع فيها الأسماك الكبيرة ، وخاصة الكنعد . أما لصيد الأسماك الكبيرة الأخرى ، فتستخدم « القراقير » ، وهي عبارة عن أقفاص كبيرة من الحديد المشبك ذات فتحات صغيرة في أعلاها ، تدخل منها الأسماك فلا تستطيع الخروج . وقلما تستخدم « الحداق » (خيوط الصيد العادية) في الصيد الا لإشباع هواية الصيد .

وليست العبرة في الصيد أن تكون كمية الأسماك المصادة كبيرة وانما في جودة نوع السمك .

وتقسم الأسماك بالنسبة لأسعارها الى عدة مجموعات ، يأتي في مقدمتها ، من حيث ارتفاع الثمن ، الكنعد ، ثم يليه مباشرة مجموعة « الخضرة » ، ومنها الحمام والجد والقفدارة والصالة والنقرور وغيرها ، فمجموعة البياض ، ومنها الهامور والسبيطي والشعرى والشعم والقرقفانة والصافي والعندق والبسار . على أن أرخص أنواع السمك هي الحمرا والتبانة والضلعة . وأخطر الأسماك بالنسبة للصيادين هي أسماك القرش التي لدى وقوعها في المناصب تلتف بها وتقطع خيوطها ، ثم تموت بعد أن تكون قد أتلفت المناصب ، أو تأكل جميع الأسماك العالقة بها لتبقى وحدها فيها ، فتذهب بجهود الصياد سدى . »

وما هو الا وقت قليل حتى بدت لنا الجزيرة ، رقعة رملية صغيرة ، أخذت تكبر تدريجيا لدى اقترابنا منها ، حتى حاذى القارب في النهاية شاطئها ، فنزلنا اليها منفرين أسراب الطيور التي تطايرت هنا وهناك مرسلة أصوات استهجان لرؤيتها غرباء يفسدون عليها خلوتها ، ثم ما لبثت ان عادت الى اليابسة لتنتشر حولنا ، وفي أعينها نظرات عجب وذعر وترقب .

وقد وجدنا أن الطيور البحرية الصفراء ذات المناقير الطويلة تحتل المنطقة الرملية حيث تضع بيضها على اليابسة ، بينما يحتل نوع آخر منها شجيرات « الهرم » ، وهو النبات الوحيد الذي لاحظناه في الجزيرة . أما الطيور الصغيرة فكانت تنتشر في المواقع التي لا ترغب فيها الطيور الكبيرة .

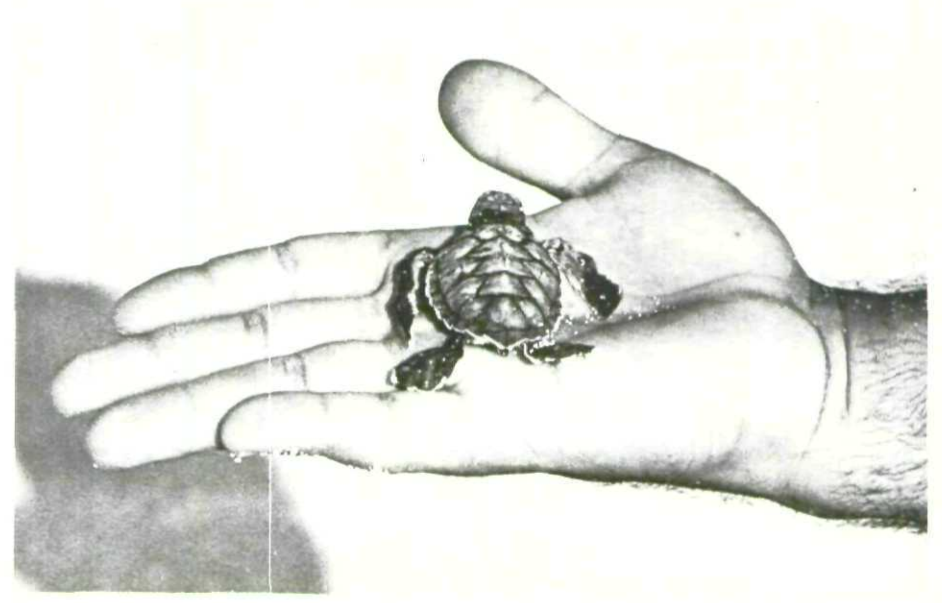
ولم تكن الطيور البحرية هي الطيور الوحيدة التي عثرنا عليها في الجزيرة ، بل رأينا كذلك بعض أنواع العصافير الصغيرة المهاجرة ، وكذلك بعض الشواهين . وقد أخبرنا البحارة ، أن هواة تربية الشواهين ، كثيرا ما يقصدون هذه الجزيرة في أواخر الصيف لاقتناصها وبيعها ، اثر تدريبها ، بأثمان مرتفعة باهظة .

أما بالنسبة للحيوانات فلم نعثر على أي منها سوى بعض السحالي وعدد من الفئران والحيوانات ذات القواقع . ولكن أكثر ما كان يهمنا العثور عليه هو السلاحف البحرية التي حدثنا البحارة الكثير عن ضخامتها ، والتي كان علينا لرؤيتها أن ننتظر حتى يخيم الظلام وتعم السكينة .

والجدير بالذكر أن أرامكو عثرت على حقل جديد للزيت في المنطقة المغمورة القريبة من جزيرة « جنى » ، وحفرت بئر ماء فيها أثناء قيامها ببعض عمليات التنقيب في تلك المنطقة .

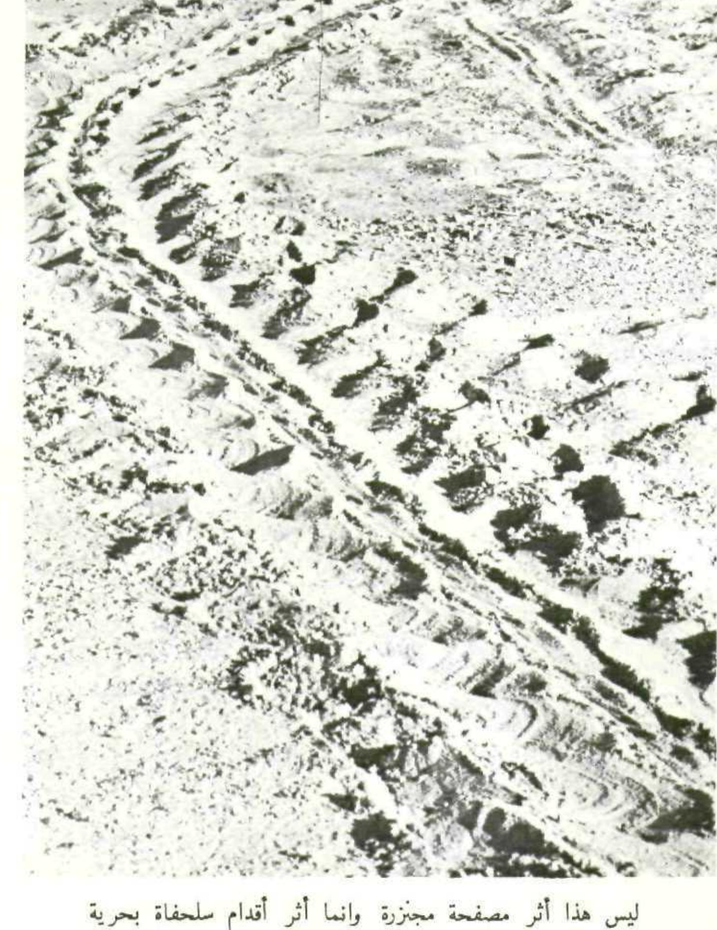
هي ذي السلحفاة في طريق عودتها الى الماء بعد أن وضعت بيوضها وطمرتها في الرمال .

وفي الليل بعد العشاء انتشرنا في الجزيرة نقتفي آثار السلاحف البحرية .. وما هي الا فترة حتى علا نداء أحد الرفاق يدعونا لمساعدته على الحيلولة دون عودة احدى السلاحف التي عثر عليها الى الماء . وتوجهنا توا الى مصدر الصوت واجتمعنا حول السلحفاة فاذا بها ضخمة ، فتعاونا جميعا حتى قلبناها على ظهرها . فأخذت تتخبط محاولة عبثا الوقوف على أرجلها . دون جدوى . اذ المعروف أن السلحفاة لا تستطيع العودة الى وضعها الطبيعي متى انكفأت على ظهرها . ثم ما لبثت ان أدخلت يديها ورأسها وقدميها ، فتركناها وذهبنا لنبيت ليلتنا تلك . وأبكرنا في النهوض صباحا لرؤية سلحفاتنا تلك ، وفي الطريق اليها تجولنا في الجزيرة نبحث عن بيض السلاحف ، فأخذنا نزيل الرمال عن وجه كل حفرة مستحدثة ، حتى عثرنا على حفرة فيها مجموعة من البيض يبلغ حجم الواحدة منها



تنقف البيوض عن سلاحف صغيرة تنفض عنها الرمال ، وتنطلق نحو الماء محفوفة بالمخاطر .





ليس هذا أثر مصفحة مجنزرة وانما أثر أقدام سلحفاة بحرية ضخمة خرجت الى اليابسة لوضع بيوضها وطمرها في الرمال .

تصوير : عبد اللطيف يوسف ، وخليل أبو النصر

حجم كرة الطاولة ، ويميل لون قشرها قليلا الى الاصفرار ، وهو أقسى من قشر بيض الطيور الأخرى .

وَنعلَم أن السلحفاة تضع في المرة الواحدة ما بين ٧٥ و ١٠٠ بيضة في حفرة مساحتها متر مربع وعمقها نصف متر تقريبا . واثر وضع البيض في الحفرة ، تطمرها بالتراب . وعندئذ تزحف بجسمها الثقيل عائدة الى الماء ، وفي عينيها دموع ربما تذرفها أسفا على فراق صغارها التي تلدها دون أن تراها . وتزحف الى الشاطيء عادة أنثى السلاحف فقط حيث تقوم بهذه المهمة وحدها دون أي معونة من الذكر . أما ذكر السلاحف فلا يصعد الى البر الا في حالة مرضه .

ويبقى بيض السلاحف تحت التراب مدة شهرين ، وتكون عادة بين أغسطس ونوفمبر ، لتنقف بعدئذ الى سلاحف صغار ، لا يزيد حجم الواحدة منها على حجم الفأرة الصغيرة ، ثم تبدأ هذه السلاحف الصغار بالخروج من التراب زاحفة تجاه الماء ، حيث يكون بانتظارها في الغالب الطيور والجرذان وغيرها من الحيوانات في البر ، والأسماك الكبيرة في البحر .

عدنا الى سلحفاتنا المعهودة ، لنجدها مطروحة كما تركناها ، فأمسك أربعة منا بها ، وبجهد رفعناها عن الأرض لنجد أن وزنها يزيد على مائة كيلوغرام . وما أن استقرت على قوائمها حتى أخذت تزحف محاولة العودة الى الماء . واعتلى ظهرها أحدنا في طريق عودته فحملته وسارت به وكأنها لا تشعر به . وبعد ذرفها الكثير من الدموع ودعت البر وغطست في الماء ثم انطلقت مبحرة في أمان .

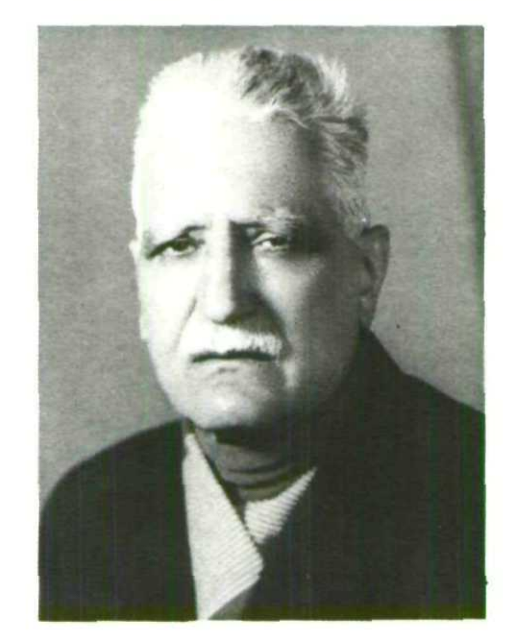
ولكن انصرافنا الى مداعبة السلحفاة أنسى بحارة القارب أنه ينبغي الاسراع في الاقلاع قبل انخفاض مستوى الماء ، فعندما حزمنا امتعتنا ووضعناها على متن القارب كان أسفل القارب قد انغرز في الرمل ، فكان علينا والحال كذلك أن ننتظر عدة ساعات حتى يعود المد ويرفع القارب ثانية . وقد قضينا تلك الساعات في مراقبة الطيور حينا ، وفي السباحة وصيد السمك حينا آخر . وبعد الغداء كان المد قد بلغ أعلاه ، فأبحرنا عائدين . وفي طريق عودتنا مررنا بجزيرة « جريد » التي تبعد عن جزيرة « جنى » حوالي مسيرة ساعة (١٠ كيلومترات) فلم نجد فيها شيئا نضيفه الى ما وجدناه في جنى . فطيورها وحيواناتها ونباتاتها تكاد تكون مماثلة لتلك التي في « جنى » الا أن مساحتها أصغر منها بقليل . وكذلك توجد فيها منارة لإرشاد السفن كتلك التي في « جنى » وبئر ماء ارتوازية ، وشارة تدل على تبعيتها لحكومة المملكة العربية السعودية ، كما هو الأمر بالنسبة لبقية الجزر ■

عصام العماد

جوانب جديدة من

حياة العقاد

من خلال ندواته وذكريات تلاميذه



بقلم الاستاذ انور الجندي

سائرال حياة العقاد ، وقد مضى على وفاته خمسة أعوام(١) ، تثير كثيرا من التساؤلات بحثا عن أعماق هذه الحياة ، وتطلعا الى ما كانت تضمره هذه الشخصية المثيرة من قدرات عقلية وطبيعة نفسية .

ولقد كانت حياة العقاد طويلة وعريضة وخصبة ، حياة مفكر وحياة انسان استوعب ثقافة عصره ، وتطلع الى أدق دقائقها ، وحرص أن يكون دائما قادرا على تعمق التيارات الفكرية والفلسفية والأدبية المختلفة ، واستخلاص موقف واضح له من مختلف هذه التيارات .

ولا تعطي آثار العقاد كثيرا مما يريد الباحثون عن العقاد من الداخل ، ولم تكن جوانب ثقافته المنوعة الا زادا خاصا له ، فقد عني بدراسة فنون مختلفة من العلوم والثقافات دون أن يكون لها صلة بالموضوعات التي كان يتناولها بالدراسة والكتابة .

ولم تستطع الآثار التي جمعت للعقاد في كتابي « أنا » و « حياة قلم » أن تضيف الكثير الى ما يتطلع اليه الباحثون لتعميق الرؤيا الى أعماق العقاد وأبعاده النفسية والروحية والذاتية . ولذلك كان من الضروري أن نذهب في رحلة جديدة في محاولة للكشف عن كيان هـذه الشخصية الفذة .

وقد استطعنا أن نحصل على حصيلة جديدة من كلمات العقاد في ندواته ومجالسه الخاصة عن اثنين من أقرب الناس اليه ، هما الأستاذان طاهر الجبلاوي ومحمود صالح عثمان ، لعلها تكون في مجموعها صالحة للكشف عن كثير من الجوانب الغامضة التي ما زالت تشد انتباه المعجبين بشخصية العقاد ومقدري آثاره . ولعل أهمها هو فيما يتصل بحياته الخاصة ، فقد عاش رحلة طويلة من حياته « في بيته » الذي جعله مكان عمله . ولذلك فان هناك تطلعا كبيرا الى الصورة التي كان يعمل بها .

يقول طاهر الجبلاوي : « انه كان يكتب مقالاته وهو مستلق على ظهره بحجرة نومه ، وقد رجع في الأيام الأخيرة عن هذه العادة ، وأصبح يكتب مقالاته ومؤلفاته على منضدة في حجرة الجلوس » .

أما كيف كان يقرأ هذا القدر الضخم من الكتب ؟ :

(١) توفي العقاد في شهر ذي الحجة ١٣٨٣ .

« بعض الكتب يقرؤها من أول صفحة الى آخر صفحة ، وبعضها يقرأ ما يهمه منها ، ويقول في ذلك : « انني حين أتناول الكتاب أكون كالرجل حين يدخل بيته ، يعرف بغير عناء الحجرة التي يجلس فيها . » ويقول : « انني أعرف موضع الابداع في الكتاب ، كما يعرف الرجل البصير بالجمال مواضع الحسن . »

وله اشارات خاصة على هوامش الكتب التي يقرؤها ، بعضها يومىء الى موافقة المؤلف ، وبعضها يشير الى مخالفته ، وبعضها يعني التكرار ، وبعضها يعني الانفراد . فاذا جلس للكتابة يستعين بهذه الرموز عن جمع الجذاذات ، كما يفعل بعض المؤلفين .

وهو لا يستعمل الورق المسطور في الكتابة ، وقد سألته في ذلك ، فقال : ان السطر وتحري الكتابة عليه يشغله الى حد ما وهو يتابع الفكرة . »

وفي مجال العمل الأدبي يقول العقاد :

« أنا في كتابتي أشعر بميل الى نصر المظلوم واظهار الحق المهضوم » .

أحب كتبي اليّ : « ابن الرومي » في الأدب ، و « سعد زغلول » في التراجم ، و « عبقرية عمر » في العبقريات ، و « حي الأربعين » في الشعر .

وأعتقد أنه لا يمكن لأحد تقليد أسلوبي لأنه يمثل فكرتي وشخصيتي .

قرأت « هازلت » و « لسينج » و « ثاكري » و « سان بيف » و « تين » ، واستفدت من قراءتهم ، ولكن لي رأيي الخاص ومنهاجي الشخصي .

اني أعرف معظم ألعاب التسلية من ورق ونرد وشطرنج ، وملم بقواعدها ، على اني أرى أن « الدمينو » أكثر تصويرا للحياة من أي لعبة أخرى ، ففيها جانب يعرفه الطرفان ، وآخر لا يعرفانه ، وفيها جانب يعرفه طرف ، ويخفى على الطرف الآخر ، والفوز فيها لذلك يقوم على عمل الانسان مع شطر من الحظ ، وهذا شأن الحياة . »

وقد تحدث الناس عن مكتبة العقاد الضخمة ، وتساءلوا عن تاريخ انشائها ، يقول في ذلك : « هذه ثالث مكتبة أقمتها ، الأولى كونتها في شبابي ثم انتهى أمرها ، وأخذت في انشاء مكتبة أخرى حتى اذا تمت عام ١٩٤٢ ، واضطررت الى مغادرة مصر الى السودان وعدت ، فلم أجد لها أثرا ، وهذه المكتبة القائمة الآن بدأت في تكوينها عام ١٩٤٢ . »

أما شعره القديم ، فهل ينظر اليه نظرة الاستهانة بالتجارب الأولى ؟ على العكس ، يقول : « اني أقرأ شعري الذي قلته مبكرا ، فأعجب كيف وفقت الى نظمه في تلك السن المبكرة . »

أما عن موقفه من الشعر والفن ، فهل تحولت مناهجه بارتفاع السن ؟ يقول : « ان رأيي في الشعر والفن لم يتغير في السبعين عنه وأنا في العشرين أو دونها ، رسالة الشعر قد حققت جميع الأغراض التي استهدفتها . »

وما دمنا في مجال الشعر ، فلنكشف بعض أسرار الصلة بين العقاد وشوقي :

كان للعقاد موقف واضح من امير الشعراء شوقي ، وقد ظل هذا الموقف من جانب العقاد طوال حياة شوقي لم يتغير ، ولم يطرأ عليه من بعد ذلك الا تحول طفيف ، وقد تحدث العقاد في ندوته عن طرف من هذا الموقف ، حين قال : « كان شوقي مدير الادارة العربية في القصر ، وتحت يده عشرون ألف جنيه للمصاريف السرية لرؤساء تحرير الصحف ، واستطاع بهذا أن يجذب الصحف الى صفه ، كما أن له دعاة منتشرين في المجالس ، وكانت أبواب الصحف مغلقة أمامنا ، فلم يكن لدينا اذن من سبيل سوى كتابة الديوان واصداره . »

كان ذلك عام ١٩٢٢ ، وقد أصدر العقاد والمازني « الديوان » وحمل العقاد حملة عنيفة على « شوقي » . وكانت لشوقي صحف تهاجم خصومه ، من أهمها « عكاظ » و « الصاعقة » . وقد حفلت أعداد مجلة « عكاظ » بالحملة على العقاد وخصوم شوقي على نحو لا يرتفع كثيرا الى مستوى النقد الفني .

ولعل أخطر مواقف الصدام بين « العقاد وشوقي » هو ما حدث في مهرجان تكريم شوقي عام ١٩٢٦ ، حين رأس سعد زغلول الحفل ، وصدرت صحيفة سعد زغلول « البلاغ » بمقال افتتاحي بقلم العقاد يحمل فيه على شوقي وحفل تكريمه .

غير أن شوقي ، وهو رجل ذكي ، حاول أن يكسب كثيرا من خصومه ، فاستطاع أصدقاؤه إغراء المازني بقبول الدعوة الى مائدته الحافلة ، أما العقاد فقد ظل عنيدا الى وقت طويل ، ولكن شوقي لم ييأس .

ويروي طاهر الجبلاوي أن شوقي في سبيل تحقيق رغبة الالتقاء بالعقاد دعا لجنة الفنون الجميلة بالبرلمان الى حفل شاي ، وأرسل زكي طليمات لدعوة العقاد بحسبانه عضوا في هذه اللجنة . ولكن العقاد قال لطليمات : « ولماذا لا يدعوني بنفسه ؟ » وعقب ذلك قصد شوقي الى جريدة « كوكب الشرق » والتقى بالعقاد .

تلقاه العقاد وأجلسه الى جواره ، ثم اتجه الى الأوراق التي كانت على مكتبه ، ولم ينطق بكلمة واحدة .

ودعاه شوقي الى الحفل ، فقبل شاكرا ، ثم اتجه الى الأوراق مرة أخرى .

يقول الجبلاوي : « كنت أنظر اليهما ، ولا أدري ما يدور بخلد كل منهما عن الآخر وهما صامتان ، وبدأ شوقي يسأل العقاد : لا أدري سر اعجابك به ؟ (ابن الرومي) ، وأخذ العقاد يتحدث عن ابن الرومي ، وملكاته الشعرية ، وقدرته على الوصف والتصوير ، وما ناله من اغفال ونسيان

في العصور الماضية . وقال شوقي : انه سيعيد قراءته . » وحضر العقاد الحفل ، ولم يلبث أن أصدر شوقي مسرحية قمبيز ، فهاجمها العقاد .

ومن ناحية أخرى كان العقاد يحب حافظ ابراهيم ، ويقول طاهر الجبلاوي : « ان ذلك ربما يرجع الى أنه يتفق معه في صفات كثيرة ، أخصها : العصامية : وكان العقاد يزوره في بيته من آن لآخر ، ويرى متعة في مجالسته ، فقد كان حافظ حسن المحضر ، حاضر النكتة ، متواضعا ، سمح النفس الى حد بعيد ، وكان يحضر ندوة العقاد في بعض الأحايين . وقد بكى العقاد عندما وصله نبأ وفاته ، وسار في جنازته .

وبعد ، فلنقرب كثيرا من نفس العقاد ، ولنلقي نظرة على حياته الخاصة ، فماذا نجد ؟ نجد نفسا رقيقة كنفوس الأطفال على الرغم من جهامة المظهر ، وضخامة الهيكل .

والحق أن أحدا لم يقترب من العقاد كما اقترب منه طاهر الجبلاوي ، ولذلك فهو أقدر من تحدث في هذا الباب في كتابه « في صحبة العقاد » : "يحلو للعقاد السهر في الليل ، يقرأ ويكتب ويسمر ، ثم يصحبني في فسحة بعد منتصف الليل ، فنخرج « بالبيجامة » ونجوس الشوارع والطرقات ، وقد خلت من كل انسان . فاذا أعيانا التعب جلسنا على مقعد مما يستعمله بوابو العمارات .

وكان العقاد يسكن في ضاحية مصر الجديدة في بنسيون الأهرام ، ثم انتقل الى منزل بشبرا لم يطل مقامه فيه ، وعاد الى مصر الجديدة يسكن في المنزل رقم ١٣ شارع السلطان سليم الذي عاش فيه بقية حياته . يقول : « كانت لنا جولات في الليل بعد أن تخلو الشوارع من المارة ، فنخرج بالبيجامات والطاقية ، ونجوس الطرقات هنا وهناك ، وقد يخطر له أن يعاكس بعض الأصدقاء فينظم زجلا يهجو أحدهم ، ويضعه في صندوق بريده . وكان يدعوني الى « معاكسة » صديقه الدكتور محمد صبري ، فأسأله بالتلفون : هل قرأت صهاريج اللؤلؤ ؟

— نعم وماذا تريد منها

— اقرأها مرة ثانية ، ثم أغلق الخط .

ويلقانا الدكتور محمد صبري ساخطا ، ويروي لنا قصته ، ونحن نكتم الضحك حتى تجيء الليلة التالية ، ونعاكسه مرة أخرى .

وكان أحيانا يضع كسرة أو شقة من الخبز في مظروف ، ويلقيه في صندوق بريد آخر .

ولعل جانب الطعام في حياة العقاد يستأثر بكثير من التساؤلات ، فقد كان العقاد أقل الناس نصيبا من الطعام . ويتكون طعام العقاد من ثمرة أو ثمرتين من الفاكهة في الصباح ، والحساء مع قطعة صغيرة من الكبد والسمك والدجاج وقليل من الخضار عند الظهر ، ولا يستخدم السمن ولا الطماطم في طعامه . وفي العشاء يتناول الفاكهة ولا يتناول شيئا غيرها ، أما الخبز فلا يأكله ، ويستعيض عنه ببضع أصابع هشة مما يصنع من الدقيق والملح . ثم يريح معدته يوما في الأسبوع ، وكان الى ذلك يتحامى المسكنات طول حياته حتى الأسبرين ، وأعرف أنه لم يتناوله ، وقد أجرى عملية جراحية في عينيه بغير مخدر .

وندوة العقاد أيضا لها قصة وتاريخ : يقول طاهر الجبلاوي :

« للعقاد ندوتان ، ندوة قديمة كان يحضرها من يمكن أن يطلق عليهم الأصدقاء ، وقد بدأت الندوة بجلسة أيام الجمعة . « بجزيرة الشاي » بحديقة الشاي ، ثم في منزله بمصر الجديدة . وكان يحضرها : أحمد صبري ، وعبد الرحمن صدقي ، ومحمد حسن الشجاعي ، وعلي أدهم ، وأحمد علام ، وصلاح الدين طاهر ، وعصام حفني ناصف ، والدكتور محمد أبو طايله والعوضي الوكيل . وكان الجميع يتناولون الغداء على مائدة العقاد .

أما الندوة الأخرى فقد تجددت ، بعد وقت ، من الشباب وخريجي الجامعات ، وأصبح حضورها مباحا أيام الجمعة . ولهذه الندوة نظام خاص ، لم يعرف الا في ندوة العقاد ، فمن حق رواد هذه الندوة توجيه الأسئلة ، أما المحدث الوحيد فهو العقاد .

ويصف « محمد صالح عثمان » الندوة : « بأنها حجرة متسعة قد توسطها العقاد ، وتستوعب نحو الأربعين بين جالس أو واقف في الشرفة ، ويجلس خارجها نحو الثلاثين تدار عليهم أكواب تحمل عصير الفاكهة ، ثم أقداح القهوة . والعمل في الندوة لا يسير طبقا لبرنامج معين ، وانما في نطاق تقليدي يحترمه الجميع . والعقاد دائما مستعد للاجابة عن أي سؤال في أي موضوع . »

ويتحدث العقاد عن طفولته :

« في أثناء طفولتي لم أسلم أبدا بأني طفل ، رفضت ارتداء البنطلون القصير ، وكنت أجلس مع الرجال ، وأعتبر مجالسة الرجال أرقى من مجالسة النساء ، وكنت أوثر أن أكون وحيدا عن أن أساير الأطفال في أي شيء . »

ولعل هذا يتصل بمفهوم العقاد للعظمة :

يقول في احدى جلسات ندواته ، كما سجلها الأستاذ محمود صالح عثمان في كتابه « ندوات العقاد » : « العظمة لها مقاييس ، كما أن لها عرفا خاصا ، ومن يتصف بها يضع لنفسه قانونا خاصا ، لا يشترك فيه مع سواه ، وهو يدين نفسه بقانونه ، والخلق للعظيم شرط لازم . والفرق بين العظمة والعبقرية ، أن العظمة تتعدد جوانبها ، أما العبقرية فهبة في ناحية معينة . والأبطال أقوى عوامل التاريخ ، والبطل سابق لعصره ، ولو أنه يمثل عصره لتخلف عنه ، وهو لا يتلقى عظمته من المجتمع ، وعند العظيم نجد أن الشرف والواجب لاصقان بعظمته » .

وبعد ، فان المتأمل لهذه العبارات يجد أن العقاد انما كان يرسم صورة نفسه على التحقيق ■

استغفار

للشاعر محمد مصطفى الماحي

استغفر الله مما قد جنته يدي ... من الذنوب ومما خطه قلمي
قد طال عمري وما أجملت في عملي ... فبت أرهب عقبى زلة القدم
هل مرّ يوم على الانسان دون أذى ... تسيغه النفس من فعل ومن كلم
وكل ما جاءه غصت به صحف ... يلقى بها الله يوم الحشر والندم

يا رب عفوك عن عبد يؤرقه ... خوف العقاب ، وما يطوي من السدم(١)
وأنت أعلم بي مني ، فما قصدت ... للشر نفسي ، ولا أخفرت من ذمم
وما طويت على ضغن ولا أحن(٢) ... سريرتي أو شفيت النفس بالنقم
وأنت أرفق بي من كل ذي شفق ... وأنت أرحم بي من كل ذي رحم
وكل جارحة مني وجانحة(٣) ... تستغفر اليوم ما جاءت من اللمم
وأنت قابل توب التائبين وفي ... منهل فضلك ارواء لكل ظم
ولن يضيقَ بآثامي وان عظمت ... ما سقت من رحمة يا واسع الكرم



(١) السدم ، الهم مع الندم .

(٢) الاحن ، جمع أحنة وهي العداوة والبغضاء .

(٣) الجوانح ، الأضلاع التي تحت الترائب مما يلي الصدر .

آثار النبي

في مكة والحج

بقلم الاستاذ احمد السباعي



هكذا كان الحجاج في الماضي يتجشمون مشاق السفر وعناء التنقل .

فهرست المجلد السادس عشر
١٣٨٨

أنت الآن على أبواب مكة !

لقد نهبت السيارة بك الأرض نهبا فلم تستغرقك المسافة من جدة الى حيث انتهيت من مشارف مكة الا نحو ساعة .. وكانت تستغرق آباءك من قبلك يومين كاملين فحمدا لله على سلامتك .

ستضع الآن قدميك حيث وضع النبي صلى الله عليه وسلم قدميه وستمشي في الدروب التي مشاها ، فحاول أن تكون أكثر خشوعا مما أنت عليه . حاول أن تستغرقك الذكريات العظيمة التي لابست حياته عليه صلوات الله وسلامه ، وأن تستذكر جهاده الفذ وما قاساه بين هذه الأزقة التي تلتوي أمامك وتتعطف .

هذا فم الشعب ، شعب الهواشم ، وأنت تنظر ، فاذا « مكتبة مكة » تقوم اليوم على أنقاض الحجرات التي ولد النبي فيها .

خفف الوطء وأنت ترود مدخل الباب ، فعلى هذا المنبسط الصغير حبا النبي أول ما حبا قبل أن تحمله حليمة السعدية الى منازل قبيلتها من بني سعد لترضعه وتشرف على نشأته .

من هذه الثنية كان ينحدر بعد أن يفع ، وعدا الى مسقط رأسه .. هوذا يأخذ طريقه بين مباذل قريش وترهاتها على حوافي سوق الفاكهة ، فيمتعض لما يسمع ، ويألم لما يرى ، فيغذّ في سيره على أمل أن يشرف على الكعبة فتتفتح لها مغاليق نفسه .. ولكن مطاف الكعبة يواجهه بأوثان منصوبة وعبّاد عري ، خلعوا ثيابهم وشرعوا يتبتلون في هراء لا يقبله ضمير .. فلا يلبث أن يبتئس .

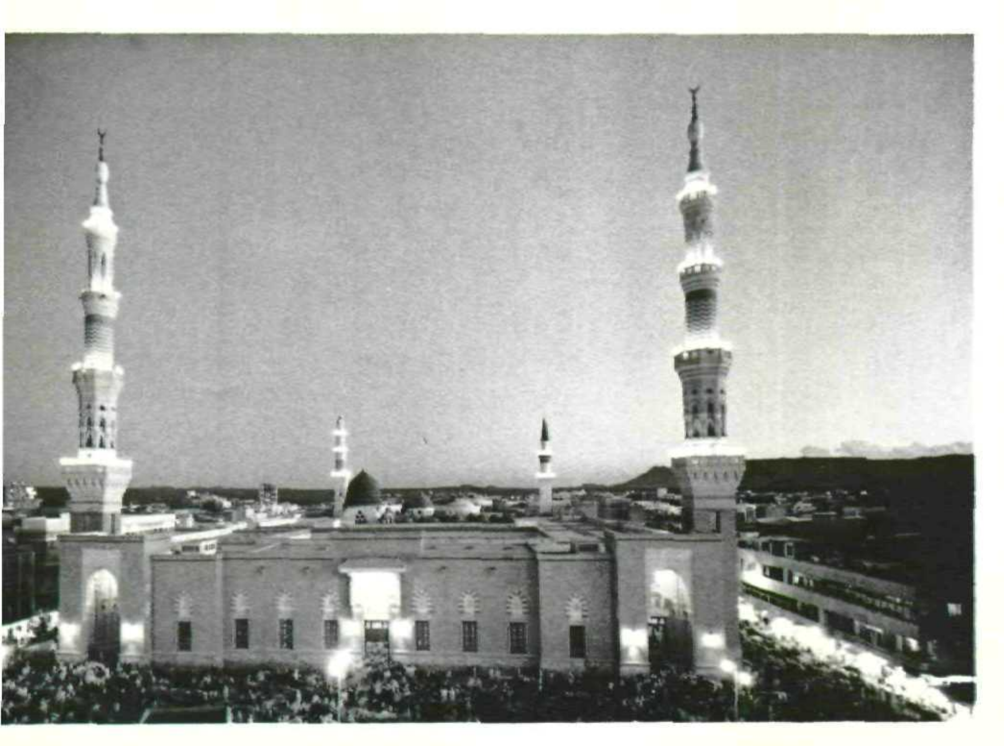
أنت تدري أنه قضى سني صباه وصدرا في شبابه ينكر الترهات دون أن يقوى على مجابهتها .

وبنى على خديجة ، فتغير دربه من طريق سوق الفاكهة .. واذا لذّ لك أن تعرف بيت خديجة فلا أكثر من أن تعرج على سقيفة « اللبانين » وهي اليوم سوق الصاغة .. هناك تطالعك مدرسة تحفيظ القرآن ، وقد بنيت اليوم في المكان الذي كانت تسكنه خديجة . وفيه بنى عليها الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، وفيه أولدها فاطمة الزهراء . فما أروع هذه الذكريات ، وما أشجاها للنفس المؤمنة .

هنا بات طريقه يأخذ الدرب من سقيفة « اللبانين » الى زقاق الحجر ، ليخرج الى الساحة التي نسميها اليوم « باب النبي » ، فيتجه منها الى الكعبة المشرفة لتطالعه نفس المظاهر التي كان يشمئز منها حول الكعبة .

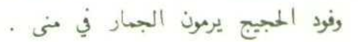


وهكذا تطورت وسائل نقلهم في عصرنا الحاضر .



المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة يزدحم بالحجاج أثناء موسم الحج .





وفود الحجيج يرمون الجمار في منى .



حجاج بيت الله الحرام على جبل الرحمة يسألون التوبة والغفران .

اذن فما يمنعه أن يبعد وأن يغذ في البعد .. ما يمنعه أن يختار من جبال مكة ما يقصيه عن غوغاء الحياة ، ويتيح له الاستغراق والتأمل .

هذا جبل حراء ما أعلى ذروته وأشق مصعده .. هنا على كتفه الأقصى ، الذي تنشق الصخور عن فجوة متربة نسميها غار حراء ، وجد النبي صلى الله عليه وسلم راحته النفسية فيه تحت سماء تغيب في غياهب الأفق ، ونجوم تشع في جمال أخاذ .

انه جبل لا يكلفني أن أميزه لك وأنا في طريقي الى منى ، الا أن أشير الى يساري الى أعلى ذروة بين الجبال لترى الى أي مدى أبعد صلوات الله عليه وسلامه في عزلته وأي مرتقى قاسي وعورة مسالكه . لست معك اليوم لنتابع سيرة سيد الخلق ، فلذلك مظانه الواسعة .. انما نحن هنا لنتابع آثار خطوه في هذا البلد الكريم .

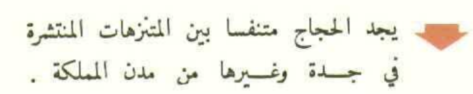
نحن هنا في أعالي مكة على نجوة من الجبل الشامخ ، جبل حراء . ولكن ثمت ما هو أبلغ شموخا ، وأصعب مرتقى تستطيع أن تشهده عن كثب اذا راق لك أن تستأنف عودتنا الى أسفل مكة .

ذلك هو جبل ثور .. وفيه الغار الذي ضمه وصاحبه يوم الهجرة ، يوم آلت قريش الا أن تضع حدا لثورته على آلهتها فأخفقت « **ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا** » .

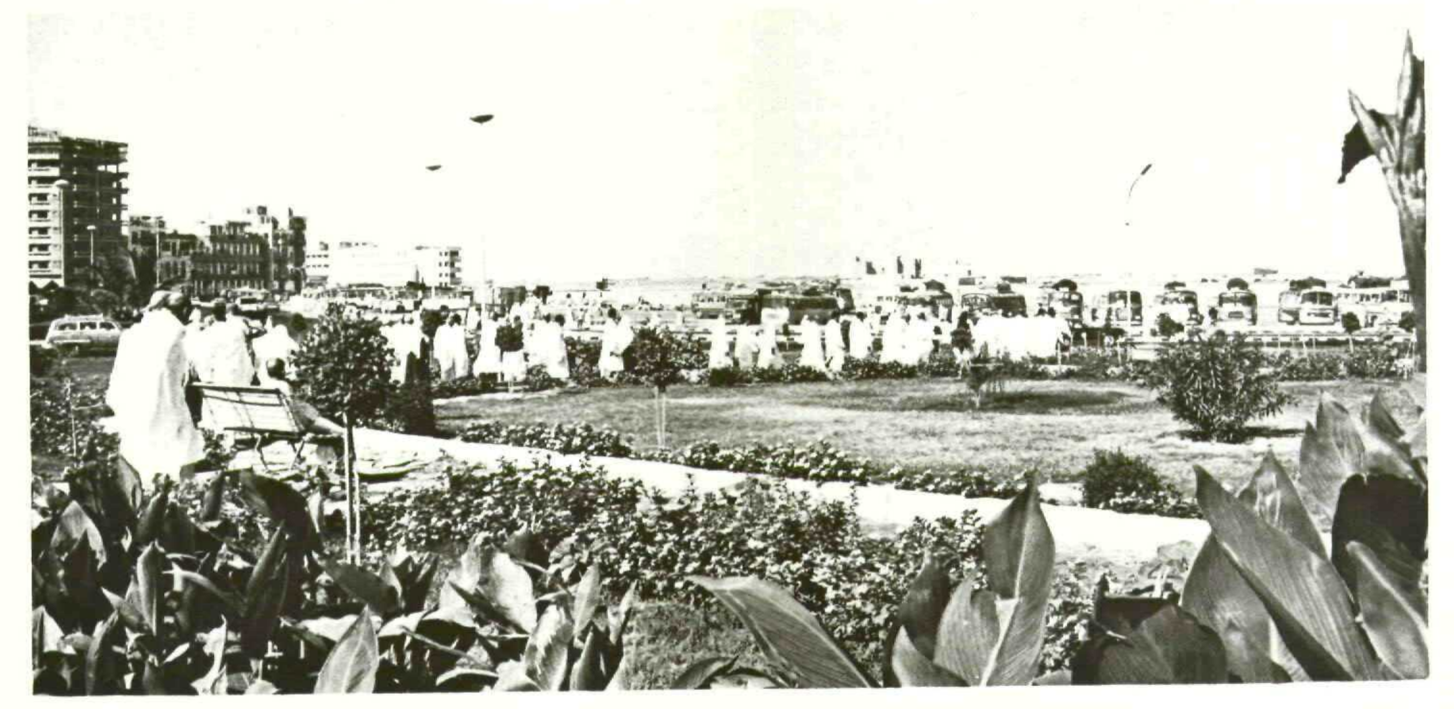
لا أريد أن أتلو عليك أسباب هجرته ، فكتب السيرة قد فاضت بمئات الفواجع التي لا تدانيها فواجع ، وحسبك مني أن أقف بك في ذيل الصفا على البيت الذي كانت الفواجع تدفعه اليه في أشد أيامه قسوة وأعنفها ضراوة .

هو ذا دار الأرقم حيث كان يجتمع النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من حمايته ، بعيدين عن أنظار قريش ، محتمين بجداره القوية من شرارهم . ولدار الأرقم قصص لها أثرها في أحداث

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » .



يجد الحجاج متنفسا بين المتنزهات المنتشرة في جدة وغيرها من مدن المملكة .



الاسلام الأولى . كان يتعيّن عليّ أن أسردها أو بعضها في حوادث ما قبل الهجرة . لو كنت هنا لأورخ . . وانما أنا هنا لأتابع معك آثار النبي بين شعوب مكة وجبالها .

ولعلّ من أروع ما تذكرني به هذه الدار في ذيل الصفا قصة اسلام عمر .. وأنت تعرف من هو عمر حدة وبأسا وشكيمة .

أغراه شبابه باقتحام دار الأرقم على من فيه . ليقضي على الدعوة المحمدية في عقر دارها . فلقيه في الطريق الى الباب رجل من قريش كان لضعفه يكتم اسلامه ، فمال عليه عمر يصفعه ويهزأ به « أهذا أنت يا نعيم .. منذ متى صبأت؟ » فصاح به نعيم : « أليس من الحزم أن تسأل أختك مثل هذا السؤال ؟ »

ارتاع عمر للخبر وانطلق يجري الى بيته . فاذا أخته تقرأ القرآن . فما ملك ان علاها بسيفه ، وهو يتهدد : « أصدقيني والا قتلتك ! » قالت : « سأصدقك ولك أن تفعل ما تشاء . لقد حبب الاسلام الى قلبي . فأسلمت . واذا استطعت أن تهدأ فدونك هذه الصحيفة تتلو ما فيها . »

أخذها عمر وشرع يقرأ ، فاذا آيات تأخذ بمجامع قلبه . فما كاد ينتهي حتى أعلن اسلامه . وانفك يجري حتى جاء دار الأرقم . فأيد اسلامه ، ولحق بنوادي قريش يهيب بهم : « الا أني قد أسلمت . فمن لم يرضه هذا فليلحقني بظهر الوادي » .

أخشى أن يكون السياق قد حاد بي عن آثار النبي ومواقف الحج في مكة ، فهلم بي ندفع مع الحجيج الى عرفات ، ثم نزدلف الى المزدلفة ، وننحدر الى منى .

ان موقفنا من عرفات يذكرني بحدث كان له شأنه .. كان نقطة انطلاق في تاريخ الاسلام . كما ظل أثره الى اليوم سياجا مانعا يحيط بمكة .

« **أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر ان الله بريء من المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين . فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم ان الله غفور رحيم. وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** » .

كان ذلك في السنة التاسعة للهجرة عندما وفد الى مكة حجاج المدينة من المهاجرين والأنصار والقبائل تحت امارة أبي بكر الصديق . وانتهوا الى عرفات . وفيها المشركون يؤدون من مناسكهم على ما ورثوا من تقاليد آبائهم . فانتحى أبو بكر بالمسلمين جانبا من عرفات يلبي بهم على ما سن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وترك المشركين في جانب آخر ينسكون منسكهم الموروث الضال دون أن يعارضهم ، رغم أن مكة باتت بعد فتحها محكومة للاسلام . وللاسلام شريعته التي لا تقبل الترهات الضالة .

وانهم لكذلك . واذا بعلي ابن أبي طالب يقف على خيام المسلمين موفدا من المدينة يحمل في رحاله أوامر جديدة نزلت بها سورة براءة بعد أن فصل حجاج أبي بكر عنها . ورأى أبو بكر أن يؤجل اعلانها الى منى . فازدلف الناس الى المزدلفة . وطاف المشركون بالمشعر الحرام . يلهجون بذكر آبائهم . ووقف المسلمون على نجوة منهم يذكرون الله . كما علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وما انتهى الحجيج الى منى حتى أعلن كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشفوعا بما نزلت به سورة براءة . وفيها أن لا عهد لمشرك ولا ذمة الا احدا كان له عند رسول الله عهد . وعهده الى مدته . وان الله أمر بجهاد الشرك ممن نقض من أهل العهد الخاص . ومن كان لا عهد له فأجله أربعة أشهر . يرجع فيها كل قوم الى مأمنهم ثم لا عهد لمشرك بعدها .

وفيها أن لا يحج بعد عامهم هذا مشرك . وهي نقطة الانطلاق في تاريخ الاسلام التي استصفت مكة دون مدن الأرض للمسلمين دون سائر الملل ومنعتها الى اليوم أن يطيف بها غير المسلم مهما كان ظرفه .

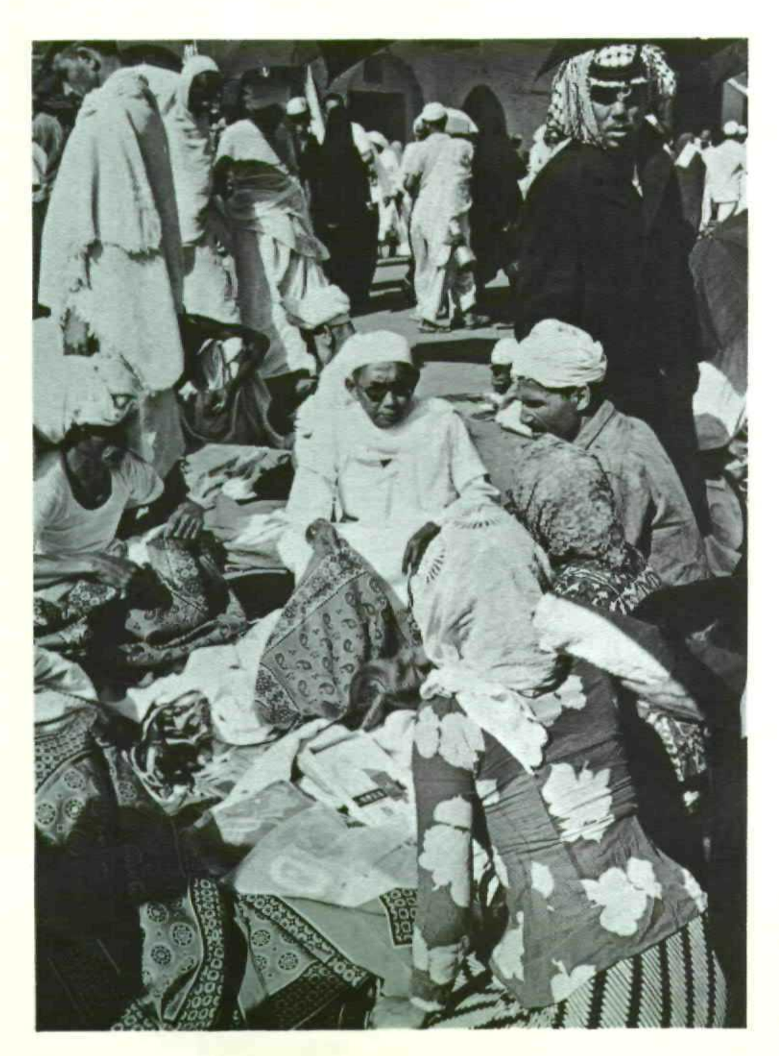
وبعد .. ألا ترى وقد انتهينا الى « منى » أن نعرج على بعض آثار النبي فيها ؟

أمامك الآن وعلى خطوات من مستشفى « منى » الكبير يقع مسجد « الخيف » . وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه صلى في مكانه . واذا تراءى لك أن تمد خطوك الى سفح الجبل خلف المسجد . فسوف تطالعك صخرة كبيرة يستظل تحتها بعض الحجاج . وفي ظلها غار المرسلات الذي ذكروا أن النبي صلى الله

جانب من مضارب الحجيج في منى أثناء الليل .



منظر عام لمضارب الحجيج في عرفة .



بعض الحجاج يجلبون بصحبتهم
سلعا يبيعونها أثناء موسم الحج .



تحرص مؤسسة الهلال الأحمر السعودي على العناية بصحة حجاج بيت الله الحرام أثناء تأديتهم مناسك الحج .

عليه وسلم مكث به بعض الوقت في أيام منى .

وتستطيع أن تنحدر الى أسفل « منى » لتنتهي الى مسجد صغير يقع بين الجمرة الأولى والوسطى ، على يسارك وأنت تنحدر .. انه مسجد « المنحر » وقد ذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه الضحى . ونحر هديه في مكانه . وقد ظل هذا المكان منحرا الى عهد من التاريخ . وكان الخلفاء في عهود مضت ينحرون هديهم فيه . وعلى غير بعيد منه في السمت نفسه في زقاق ضيق يقع مسجد « الكوثر » . وفيه نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم سورة الكوثر .

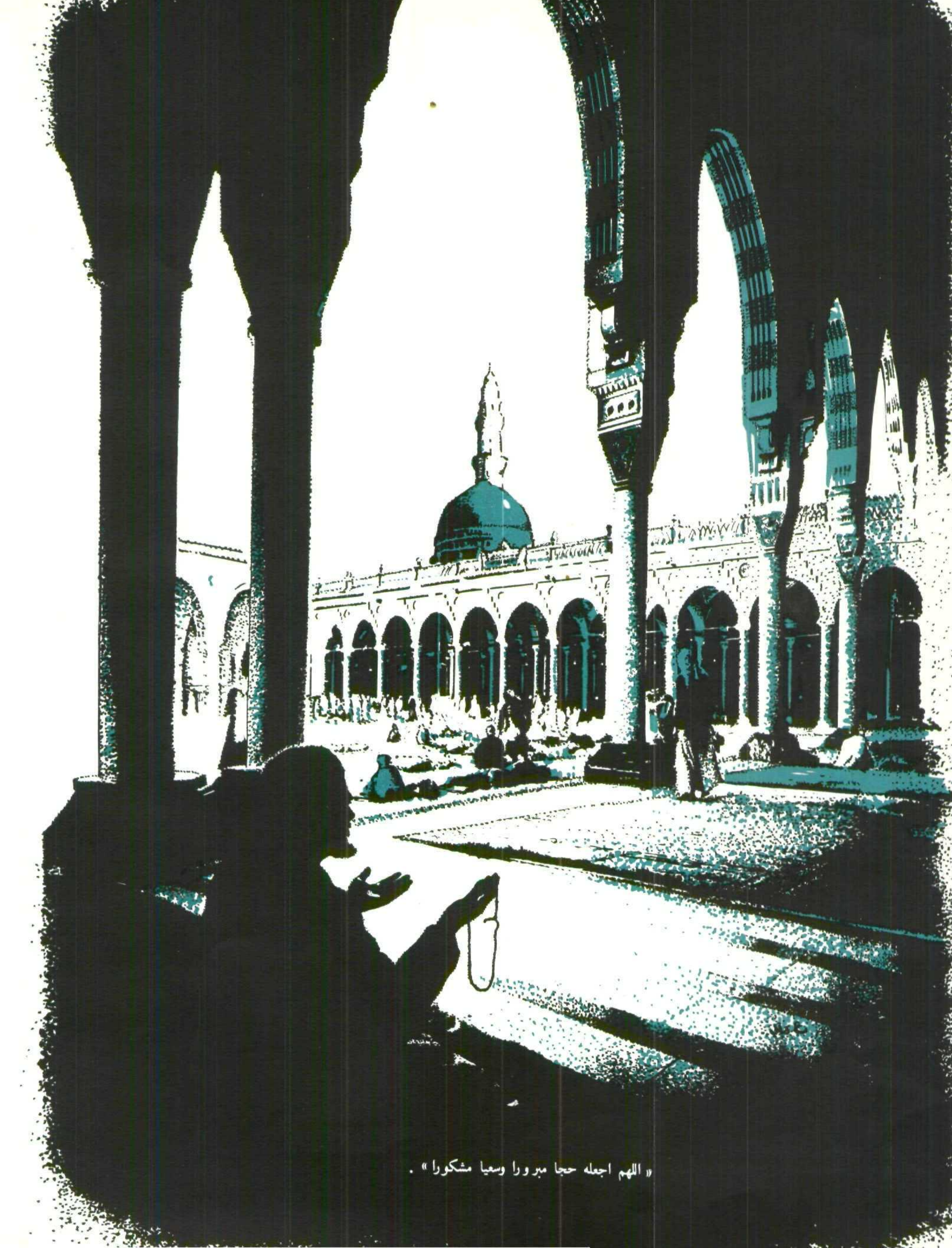
واذا كان قد فاتني أن أشير لك الى بعض المواقع الأثرية في مكة فلا يجب أن يفوتني الآن ونحن نفيض الى مكة لنطوف بالكعبة للحج :

ستواجه بانفصالك من منى الى مكة شعبا ينعطف على يمينك يسمونه شعب البيعة وفيه بايع النبي صلى الله عليه وسلم جماعة الأنصار ، حضره عمه « العباس » . وتواجه على خطوات منه ، وفي السمت نفسه ، مسجدا يسمونه مسجد « الاجابة » ذكروا أن النبي صلى فيه .

ويمضي بك الطريق الى مكة في استقامة واحدة ، لتنتهي الى مسجد « الراية » فيما يسمونه بسوق « الجودرية » . واذا تياسر بك الطريق عند بيت النبي . الذي حدثتك عنه ، فستجد مدرسة للتعليم الليلي كان يقوم في مكانها البيت الذي يسكنه علي بن أبي طالب ، كما كانت تقوم حوله عشرات البيوت لكثير من بني هاشم .



ماء بارد زلال لسقاية الحجيج داخل المسجد النبوي الشريف .

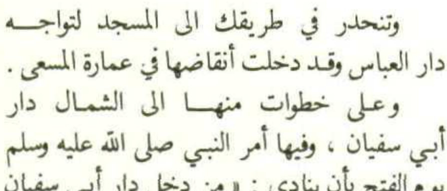


« اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا » .



تتوفر المرطبات والمنعشات والمـأكولات الخفيفة أثناء الحج. تصوير: شيخ أمين

وتنحدر في طريقك الى المسجد لتواجـه دار العباس وقد دخلت أنقاضها في عمارة المسعى.



وعلى خطوات منهـا الى الشمال دار أبي سفيان، وفيها أمر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بأن ينادى: «من دخل دار أبي سفيان كان آمنا».

واذا بدا لك أن تتجه الى أسفل مكة فستواجه المكان الذي كان يقوم فيه دار حمزة بـن عبد المطلب، وعلى غير بعيد منها كانت تقوم دار لأبي بكر الصديق.

° ° °

أرأيت أنها جولة باتت اليوم بعد أن مهدت بلادنا للسيارات لا تكلف المستقصي الا دقائق.

وتسوقني قصة تمهيد البلاد للسيارات الى التمهيد العام الذي تميز به عهدنا اليوم عن عهود مضت. فبلادنا اليوم تحفل بكثير من مرافق الحج التي تؤمن للحجيج راحتهم، ومستشفياتنا تنتشر في مدن البلاد وقراها، وبين خيام الحجاج، حيث ينزلون بشكل لا يتسع له مثل حديثي هذا.

وكان الحجاج الى عهود قريبة يشكون عدم الأمان وقلة الماء، فبات الأمان عندنا مضرب الأمثال وخدمت مصادر المياه بصورة أوفت على الغاية، أو كادت.

ولم يقف الأمر عند هذا، فما زال المعنيون يواصلون الجهد على أمل أن يحققوا للبلاد والحجيج أفضل ما يرجون من نتائج ■

تعج الأسواق بأنواع الفواكه والخضار المختلفة أثناء موسم الحج.

الصراع بين العامية والفصحى

تدور في هذه الأيام معركة حامية حول العامية والفصحى . وينادي أنصار العامية بالحد من استخدام الفصحى في الأعمال الأدبية بدعوى أن العامية في رأيهم أقرب الى نفوس الجماهير . ومن هنا يكيل هذا الفريق التهم لأنصار الفصحى ، ويحاولون أن يهدموا كل مجد أدبي بلغه هذا الفريق في المضمار الأدبي .

والرأي عندي أن استخدام الفصحى ليس معناه هدما للعامية ، كما أن استخدام العامية في بعض المواطن ليس معناه تقويضا لبنيان الفصحى . فلا بد اذن من أن تواكب العامية الفصحى ، ذلك لأن العامية ليست لغة قائمة بذاتها مستقلة بكيانها ، انما هي لهجة من اللهجات المتفرعة عن اللغة العربية . واستخدام اللهجة العامية في بعض ما يعرض على المسرح أو المرناة لا يعني هدم اللغة العربية من أساسها ، فهي لا تزال لغة الدين والقرآن الكريم ، المنزل بلسان عربي متين حتى يفهمه العرب جميعا ، وليظل منارا متألقا وسراجا للنـاس في مشارق الأرض ومغاربها .

وان كل دعوة تخرج عن هذا النطاق وتطالب بالانصراف عن استخدام اللغة العربية وإيثار اللهجة العامية ، دعوة باطلة لأنها تقوض دعائم التاريخ تقويضا جسيما ، فان آثارنا الأدبية التليدة كتبت بهذه اللغة العريقة ، كما أن شعر العرب منذ أعماق العصر الجاهلي حتى العصر الحديث نظم بهذه اللغة ، واستطاع أن يصل الى أغوار القلوب ، وان يتغلغل في أعماق النفوس في سهولة ويسر ، بل انه استطاع أن يغني مشاعر الأمة العربية ، وما يختلج في صدور أفرادها من أحاسيس ، ويعتمل في قلوبها من عواطف جياشة تتصل بالحياة والحب والأمل والمستقبل . ومن هنا نرى أن دعـاة الاستغناء عن الفصحى أنما يعملون على تقويض تاريخهم وتراثهم العريق ، ممثلا في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وما جادت بـه قرائح العرب منذ الأزمان التليدة .

واللغة العربية الفصحى قادرة على التعبير في شتى الأحاسيس ، بما في ذلك الحوار ، وهذا يعتمد ولا شك على قدرة الكاتب وبراعة القاص . ومن أجمل ما قرأته في الدفاع عن الفصحى قول الشاعر القروي الراحل رشيد سليم الخوري في هذا الباب « .. هي لغة العروبة ، اللغة الخصبة المطواع ، لغة أهل الجنة ، اللغة التي اتسعت لرسالة الرحمن ، اللغة التي ملكت فصحاها ألسنة أفذاذ الأدب العربي ، وألفت بين قلوبهم في كل قطر سحيق ، والتي يتناشد ألحانها بلابل الشعر من الخليج العربي الى المغرب الأقصى الى كل مغترب قذيف ، فتتجاوب قلوبهم أصداءها . بهـا التفاهم ، وبها الالفة ، وبها الوحدة . فيها القوة ، فالهيبة ، فالسلم ، فالنعيم المقيم . كل عادل الى العامية عنها ، يشربها دونها ، انما هو كافر بها وبكم أيها العرب ، دساس عليها وعليكم ، كائد لها ولكم .. »

فرشيد سليم الخوري يحب الفصحى حبا جما صرفه عن كل لهجة أخـرى ، فهو لا يطرب من غير الفصحى ، ولا ينتشي من غير الفصحى ، ولا تهتز مشاعره ، ولا يتأثر خافقه بغير الفصحى ، ولا غرو فان حب رشيد الخوري للفصحى حب للغة آبائه الأولـين ، وتـراث أسلافه الغابرين

وقد نادى فريق من الأدباء باستخدام لغة وسيطة بين الفصحى والعامية ، تميل الى السلاسة واليسر ، ومن بينهم الأستاذ الكبير توفيق الحكيم الذي ابتدع هذه اللغة الوسط في مسرحيته المعروفة « يا طالع الشجرة » ، على العكس من محمود تيمور الذي بدأ حياته بالكتابة بالعامية ، ثم كتب مسرحياته بعد ذلك بالفصحى كمسرحية « ابن جلا » وغيرها . أما عزيز أباظة فان مسرحياته التي كتبت بالفصحى لا تحتاج الى

بقلم: الدكتور جمال الدين الرمادي

بيان أو تعليق ، لأنه حاول بها أن يجري على نمط شوقي أمير الشعراء ، فوفق حينا وأخفق حينا آخر ، بيد أنه لم يعرف التقهقر أو التراجع .

وقد نقل الأستاذ وديع فلسطين في بحث ممتع لـه عن العامية والفصحى في كتابه « قضايا الفكر في الأدب المعاصر » رأي الأديب أمين نخلة في هذه اللغة ، فقال :

« ان الذين يقولون بالكتابة الوسط ، وهي التي يجمع فيها بين غرار الفصاحة وسقط المتاع ، ليلذها من هو فوق من الجمهور ومن هو تحت ، انما هم يقولون أن تصبح « هملت » مثلا مفصلة على ذوق الباعة المتجولين من جهة ، وذوق تلامذة اكسفورد من جهة أخرى ! »

فالمحاولة على طرافتها لا تخلو من نقد ، بيد أن توفيق الحكيم في رأيي قد أصاب فيما ابتدعه من منهج ، لأن الأمر لا يعدو استخدام ألفاظ سهلة وكلمات رشيقة مع المحافظة على قوام الفصحى . ويبدو أن الذين ينصرون العامية على الفصحى لا ينصرونها الا زهدا في الأدب العربي القديم ، وانصرافا عن النظر فيه والتمعن في آثاره ، لا اعتقادا منهم بدور العامية من الوجهة العلمية في الفكر الحديث .

ويقول الأستاذ محمود تيمور في هذا الباب من خلال تجاربه : « ان جمهور الشاعر حافظ ابراهيم ، وهو شاعر عربي يحرص كل الحرص على استخدام اللغة العربية ولا يترخص في ألفاظه أو معانيه كان خليطا من طبقات الشعب ، يفهمون عنه ، ويتأثرون به ، ويصفقون لـه في صدق وايمان . » ولا يذكر تيمور حفلا شعبيا شهده ، وأنشد فيه حافظ احدى روائعه الا وكان بين جمهور السامعين اعداد كبيرة من العامية يطربون للشعر ، ويهتاجون بالانشاد ، ويتصايحون في تهليل واعجاب .

فالمعوّل في الفن والأدب على الفنان نفسه والأديب نفسه ، وما اللغة الا أداة التعبير ، وهي وسيلة تداول الأفكار وتبادلها وانتقالها من شخص الى شخص ومن جماعة الى جماعة . وقديما قال أرسطو : « ليس ثمة تفكير بدون صور ذهنية ، وغير خاف أن هذه الصور تجيء في مقدمتها الرموز اللغوية ، وهذه الرموز قد تصاغ في قالب فصيح أو عامي .. » والشاعر العربي يقول :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن هنا كان لكل مقام مقال في التعبير ، ولكن ينبغي ألا نكون منتصرين للفصحى الى درجة الاسراف والمغالاة ، بحيث ان تغلق الأساليب في بعض الأحيان على الافهام ، ومن ذلك ما رواه الأستاذ الراحل أحمد حسن الزيات ، حين قال : هناك لفظ « أباجورة » مثلا ، فالكتاب لم يجدوا ضرورة لتسمية هذا الشيء لقلة دورانه على الألسن في خارج المنزل ، فعمت الاباجورة في الكلام والكتابة . فلو أن الكتّاب عادوا اليوم فأطلقوا عليها لهامة أو ضامة لأنها تلم الضوء المتفرق وتضمه ، لما فهم الناس ما عبروا عنه . »

ويجدر في ختام هذا البحث أن أذكر أن هناك عددا من الباحثين الأوربيين الذين ذهبوا الى تدوين العلوم باللغة العامية ، ومنهم الكونت « كولردج لندبرج » اللغوي الأسوجي الذي كتب تقريره في مؤتمر « ليدن » للغة العربية بلغة العامة عام ١٨٨٣ . وظهرت هناك كتب ومؤلفات في اللهجة العامية ، نذكر منها « لحن العامة » لأبي عبيدة المتوفى سنة (٢٠٩هـ) ، و« لحن العامة » لأبي حنيفة الدينوري المتوفى سنة (٢٩٠هـ) ، و« لحن العامة » لأبي عثمان المازني المتوفى نحو (٢٤٨هـ) ، و« التكملة فيما تلحن به العامة » ، و« المعرب فيما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي » ، وهما من تأليف أبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي البغدادي المتوفى سنة (٤٦٥هـ) ، وكتاب « درة الغواص » للحريري ، و« شرح درة الغواص » لشهاب الدين الخفاجي المصري المتوفى عام (١٠٦٩هـ) .

بل ان هناك مؤلفات لبعض المعاصرين في العامية منها « معجم الياس بقطر القبطي » ، وفيه الكثير من لغة مصر والشام والمغرب وتونس العامية ، وطبع في باريس سنة (١٨٦٤م) وفي مصر سنة (١٨٧٢) ، و« وسائل في العربية العامية » لمحمد عباد الطنطاوي مدرس العربية في بطرسبرج المتوفى سنة (١٨٧١م) ، وطبع ليبسك (١٨٤٨) ، و« كشف الطرة عن الغرة » لشهاب الدين الألوسي البغدادي المتوفى سنة ١٨٥٤م . وكتاب « الصحيح بين العامي والفصيح » للشيخ خليل اليازجي المتوفى سنة (١٨٨٩) ، و« مميزات لغات العرب وتخريج اللغات العامية عليها » لحفني ناصف وطبع في مصر سنة (١٨٨٦م) ، و« معجم اللغة العربية المصرية العامية » لأحمد تيمور ، وقد نشرت منه أمثلة في مجلة المجمع العلمي في دمشق .

كما أن هناك عددا من المستشرقين كتبوا في لهجات العربية العامية ، نذكر منهم المستشرق الفرنسي (هربان — Herbin) الذي ألف كتاب « أصول اللغة العربية والفرنسية » ونشر في فرنسا . وهناك كتاب « أمثال من أهل الشام بلغة العامة » جمعها « كارلو لاندبرج » ، بالاضافة الى كتابه « بحوث في اللغة العربية العامية » . كما أن هناك عدة أبحاث في العامية بقلم (ليتمان—Littman) و (لويس ماسينون — Masignon) ، وكتاب « اللهجات العامية العربية » بقلم (جوزيف سيانكوفسكي — Sienkoviski) ، و«تدوين اللغة العامية المصرية» للعالم (نالينو — Nallino) وطبع في « ميلانو » عام (١٩٠٠م) .

وهذا قليل من كثير مما كتب في اللهجة العامية ، فهي — ولا شك — موضوع يستحق الدراسة والأهمية ، على الرغم من أن طغيانها على الفصحى يبعث الى التفتت والتفكك بين أبنائها ومحو تراث آبائنا الأولين ■

الادارة .. أساليبها ومقوماتها

في عالم الصناعة لا بد للرؤساء والمديرين مهما كان مستوى رئاستهم من أن يكونوا أشخاصاً قياديين. اذ عليهم أن يتكفلوا بانجاز العمل بمشاركة جهود غيرهم من الناس وذلك باتخاذ القرارات، والتأكد من انها قد نفذت بكاملها. وقد كان الاعتقاد السائد حتى وقت قريب ان القادة يولدون باستعداد فطري لممارسة العمل القيادي، الا أن العلم الحديث أثبت أنه من الممكن تدريب بعض الأشخاص العاديين بحيث يصبحون قادة في مجالاتهم.



الدكتور « روبرت بليك » يوضح للمشتركين في الدورة الادارية التجريبية بعض النقاط الواردة في الدراسات التحليلية التي وضعها بالاشتراك مع نائبته الدكتورة « جين موتن » الجالسة الى يساره .

منذ زمن بعيد والناس يحاولون أن يجدوا جوابا للسؤال التالي : ما الذي يجعل رجلا من الرجال قائدا ؟ فكانوا يدرسون تاريخ الملوك والرؤساء وقادة الجيوش وكبار المديرين في مختلف المجالات بغية تحديد الصفات والعوامل التي جعلت منهم زعماء أو قادة . ولعل أشمل تعريف للقائد هو ذلك الشخص الذي يستطيع ، بالاستعانة بما يجتمع لديه من كفاءات وميزات شخصية ، أن يحمل الآخرين على اتباعه ، وعلى النظر الى الأمور ، كما ينظر هو اليها ، وعلى القيام بما يريد منهم أن يقوموا به طائعين مختارين ومقتنعين بجدوى ما يقومون به وبأهميته وضرورة القيام به .

ويجمع الكثيرون ممن بحثوا مقومات القيادة وألفوا فيها انه ينبغي أن تتوفر في القائد صفات رئيسية أهمها : الصحة الأساسية(١) ، ووضوح الغاية والهدف ، والحماس المستمر ، والاهتمام الصادق بالغير ، والاستقامة ، والتمكن من العمل أو الصنعة ، والحزم ، والذكاء ، والقدرة على التعلم والتعليم ، وحسن الظن بالناس .

قابل للتدريس والتعلّم ، لا سيما وأن أسس التدريب أصبحت معروفة بشكل أوضح من ذي قبل ، مما يتيح للأفراد الذين يشغلون مناصب ادارية ، فرصة تعلم أساليب تطبيق المبادىء السلوكية على الأوضاع المادية الواقعية ، فتكون حصيلة ذلك ادارة أفضل وانتاجا أكثر .

وشركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) العاملة في رقعة من الأرض مترامية الأطراف بجهاز يبلغ عدد أفراده نحو ١٢,٠٠٠ موظف يشتركون في أداء مجموعة كبيرة من أعمـــال مختلفة تقتضيها عمليات صناعة الزيت ، لا بد من أن يكون لديها عدد كبير من الرؤساء والاداريين تعتمد عليهم في أداء أعمالها . لذلك كان لزاما عليها أن تضع خطة متطورة لتدريب هذه الفئة من موظفيها ، ولإعداد فئة أخرى من الموظفين الذين قد توكل اليهم مهام ادارية في المستقبل ، أو الذين تقتضي أعمالهم ان يكونوا على إلمام تام بالأساليب الادارية الحديثة والأنظمة المعمول بها في مختلف ادارات الشركة وأقسامها .

من أفلام سينمائية وصور ثابتة ولوائح وغير ذلك .

أما رؤساء الوحدات فكانوا يتلقون دورات تدريبية مدتها ٥٤٠ ساعة ، وتشمل التنظيم ، والتخطيط ، والاتصال ، والتدريب ، وشؤون الموظفين ، والسلامة ، ومتطلبات العمل ، وأساليب الرئاسة ، والسجلات ، والتقارير .

أما على مستوى رؤساء الأقسام فكان يلجأ الى الادارات المختلفة للاستعانة ببعض المسؤولين فيها لشرح نظم اداراتهم ، وإلقاء محاضرات تشمل مواضيع تنظيم مناطق الشركة وأعمالها ، بالاضافة الى الاجتماعات الادارية ، والاجتماعات التي تبحث اقتصاديـــات صناعة الزيــت ، واجتماعات ممارسة لعبة الزيت(٢) . وكانت هذه المحاضرات والاجتماعات تعقد خلال ساعات العمل وعلى نحو دوري .

هذا بالاضافة الى دورة يشترك فيها الرؤساء على جميع المستويات الأربعة وتستغرق نحـــو ٣٠ ساعة متفرقة يدور البحث خلالها حـــول العلاقات الانسانية في الصناعة .

الادارة علم قابل للتعلم

شهدت السنوات الخمسون الأخيرة تقدما ملحوظا في العلوم الطبيعية أدى الى ظهور أساليب انتاج جديدة ومنتجات لم تكن معروفة من قبل ، وأحدث تغييرا كليا في أساليب العمل الفنية . كما أحرزت العلوم المتعلقة بسلوك الانسان تقدما لا يقل أهمية عن التقدم الذي أحرزته العلـوم الطبيعية ، فقد فتحت الاكتشافات الحديثة في هذه العلوم أبواب التحسين الفعلي في الاداء التنظيمي عن طريق ادارة الأفراد ادارة حكيمة رشيدة . وبذلك غدا الشك يتطرق الى جدوى كثير من الطرق التقليدية التي يتبعها التنظيميون والاداريون وأصبح كثير من الأمور السلوكية الادارية التي كان مسلما بصحتها موضع الفحص والتدقيق . وقد أدى اكتشاف مبادىء السلوك وتحليلها وتصنيفها تصنيفا منهجيا واستعمالهـــا بصورة ملموسة في الأمور الادارية ان الادارة علم ينتمي الى العلوم التطبيقية ، وانه بالتالي

برامج التدريب على الرئاسة والادارة في أرامكو

بدأت أرامكو بتطبيق برامج التدريب على الرئاسة والادارة منذ أوائل الخمسينات ، باشراف ادارة التدريب ، وكانت هذه البرامج تشمل دورات رئاسية وادارية يشترك فيها متدربون يشغلون مناصب من مستويات رئاسية ، تتدرج صعدا كما يلي : مستوى رؤساء الشُّعَب ، ومستوى رؤساء الوحدات ، ومستوى رؤساء الأقسام ، ومستوى رؤساء الادارات .

فكان المشتركون على مستوى رؤساء الشّعَب يتلقون دورة مدتها ١٨٠ ساعة قبيل تعيينهم في مناصب رئاسية ، وكانت هذه الدورة تشمل مقومات القيادة ، ومبادىء الرئاسة ، كما كانوا يتلقون دورة رئاسية أخرى مدتها ٤٨٠ ساعة ، وتشمل مواضيع التنظيم والاتصـــال والسجلات والتقارير وأساليب الرئاسة ، بالاضافة الى دورة في الاسعاف الأولي مدتها نحو ١٥ ساعة . وكانت هذه الدورات تقدم على شكل محاضرات واجتماعات ومناقشات تعقد باللغتين العربيـــة والانجليزية ، وتدعمها وسائل الايضاح اللازمة

تطوير برنامج التدريب على الرئاسة

في مطلع عام ١٩٦٧ اتجهت ادارة التدريب في أرامكو الى حصر برامج التدريب على الرئاسة والادارة في دورة واحدة مدتها ١٦٠ ساعة ، يتفرغ لها المتدرب طوال ساعات العمل لفترة أربعة أسابيع متتالية . وتسمى هذه الدورة « دورة التدريب على الرئاسة » ، وهي عبارة عن برامج أساسية تشمل أساليب الرئاسة ومقوماتها ، كما تشمل تعريفا أساسيا بأنظمة الشركة المعمول بها ، وأساليب أعمالها الادارية .

ويستطيع الاشتراك في هذه الدورة كـــل رؤساء الشّعَب والوحدات والأقسام في أرامكو ، والموظفون الذين يعدّون لشغل مثل هذه المناصب . وقد قسمت موضوعات هذه الدورة بحيث تشمل ١٥ ساعة لدراسة التنظيم ، و ٤٠ ساعة لدراسة أساليب الاتصال وفعالية كل منها ، و ٢٠ ساعة لدراسة أصول السلامة داخل العمل وخارجه . كما تشمل ١٤ ساعة أخرى لدراسة أنظمة التدريب وأساليبه المتبعة في مراكز وورش التدريب الصناعي ،

---

(١) الصحة البدنية والعقلية . (٢) لعبة الزيت : نموذج مصغر لشركات الزيت ومناطق انتاجه . ويشترك فيها ثلاثون شخصا يقسمون الى عشرة أفرقة يتألف كل منها من مدير عام ومحاسب وجيولوجي . وتستغرق نحو ثماني ساعات . ويشكل كل فريق من هذه الأفرقة ادارة كاملة لشركة زيت تنقب وتحفر وتنتج ، وتكون دائما عرضة للمغامرة المدروسة . والفريق الذي يحقق ربحا أكبر يكون هو الفريق المنتصر . والمقصود بهذه اللعبة تعريف المتدربين بظروف العمل الحقيقية لشركات الزيت الكبرى .

والتدريب خلال العمل ، والأنظمة المتعلقة بتدريب الموظفين داخل المملكة وخارجها ، و ٢٤ ساعة لدراسة أساليب الادارة ، و ٣٠ ساعة لدراسة شؤون الموظفين وتقييم الوظائف وتصنيفها وطرق تناولها ، بالاضافة الى ٤ ساعات للتعرف بأنظمة الادارة الطبية وطرق العلاج التي تتبعها . وتخصص الدورة ١٣ ساعة أخرى لمواضيع ومحاضرات واجتماعات متنوعة تتعلق بعلم الادارة بشكل عام وأنظمة الشركة الادارية وأساليبها بشكل خاص .

ويضم كل اجتماع من اجتماعات التدريب على الرئاسة ثلاثين متدربا يقسمون الى ست فرق تعمل على انفراد ، وتعرض نتائج عملها ، وتناقشها مع الفرق الأخرى . وتهدف هذه الاجتماعات ، بالاضافة الى محتواها التعليمي ، الى تعويد المتدربين على العمل الجماعي والتفكير التعاوني المنظم من خلال انسجام الفرد مع مجموعته . ويبدّل أعضاء هذه الفرق مرة كل أسبوع مما يتيح للمتدرب الواحد فرصة المشاركة في العمل مع غيره من المتدربين .

وقد عقد من هذه الاجتماعات حتى نهاية سبتمبر ١٩٦٨ تسعة ضمت ٢٧٠ مشتركا وقام على تنظيمها والإشراف عليها قسم التدريب على الرئاسة والادارة ، بالاستعانة بذوي الكفاءة والاختصاص من موظفي الادارات الأخرى .

نظريات وأساليب ادارية جديدة

قام الدكتور « روبرت بليك » رئيس جمعية الأساليب العلمية الأمريكية ونائبته الدكتورة « جين موتن » ، وهما اخصائيان في العلوم الاجتماعية ، بدراسة علمية تحليلية وافية لأساليب الادارة استغرقت بضع سنوات . ونتيجة لذلك وضعا مبادىء وأسس حديثة لعلم الادارة ، تعتبر من آخر ما توصل اليه في هذا الفن ، وتتمثل في عدد من نظريات السلوك الاداري ، تقوم على عنصرين أساسيين من عناصر العمل الجماعي، هما : **الاهتمام بالانتاج ، والاهتمام بالعلاقات الانسانية .** ولا يعني « الاهتمام » هنا تحديدا كميّا للانتاج ، ووفاء معينا بحاجة العلاقات الانسانية ، بل ينصب التوكيد على مقدار اهتمام الرئيس بالانتاج ، ومقدار اهتمامه بالعلاقات الانسانية .

وقد عرضت هذه النظريات في كتاب حول تلك الدراسة يتكون من ١٤ فصلا تدور كلها حول تخطيط بياني يمثل محوره الأفقي مدى اهتمام الرئيس بالانتاج ، ومحوره العمودي مدى اهتمامه بالأفراد ، مع التركيز على خمس نقاط بيانية في المخطط تمثل النظريات التي يعرضها الكتاب ، مع خصائص كل نظرية . وقد ترك للمتدربين محاولة استيعاب هذه النظريات ، واكتشاف ما ينطبق منها عليهم أو على غيرهم من الرؤساء ، والاستفادة من خصائص النظريات الأخرى ومميزاتها . ولم تنته هذه الدراسة عند اجمالها في كتاب معين ، فقد وضع لها المؤلفان طريقة عملية يتدرب بموجبها الرؤساء في مختلف المؤسسات والشركات في شتى أنحاء العالم على هذه النظريات من خلال العمل الجماعي المقوّم الذي يتيح لكل متدرب فرصة بحث الأمور ومناقشتها واقتراح ما يلزم بشأنها مع أعضاء فرقته ، وبالتالي مع الفرق الأخرى ، وذلك بغية زيادة فعالية الانتاج عن طريق تنمية روح العمل الجماعي وتكريس شعارات المشاركة في التخطيط والموافقة على الخطة ، والالتزام بها ، وتنفيذها عمليا باتباعها والتقيد بها .

وقد بدأت شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) في ٢٨ مارس ١٩٦٨ بتطبيق الدراسة التحليلية المذكورة آنفا ، بعد أن حصلت على ترخيص عنها من جمعية الأساليب العلمية الأمريكية ، لتدرب عليها أكبر عدد ممكن من اداريها ، فعقدت خمس دورات تجريبية استمرت خمسة أسابيع ، واشترك فيها ٢٥٠ موظفا ، وأشرف على الدورة الأولى منها كل من الدكتور « بليك » والدكتورة « موتن » ، واضعا هذه الدراسة . وعلى أثر دراسة تحليلية لنتائج الدورات التجريبية ، تقرر أن تعقد دورات أخرى ابتداء من ٩ يناير ١٩٦٩ القادم مدة كل منها أسبوع واحد ، ويشترك في كل منها ٥٠ موظفا . وسيقوم كبار اداريي أرامكو بالاشراف على هذه الدورات .

وتقوم ادارة التدريب على الاعداد لها ، وذلك بعقد دورات تحضيرية ، تستغرق كل منها ثلاثة أيام للاداريين العرب السعوديين الذين سيلتحقون بها . فكانوا يتلقون محاضرات تعطيهم فكرة شاملة عن الدراسة التحليلية للأساليب الادارية التي يستعدون لحضورها ، ثم يقسمون الى فرق تشترك معا في مناقشة المشكلات التي تعرض عليهم والحلول التي يتوصلون اليها من خلال عملهم كفرق منفصلة . ثم يقيّمون عمل كل فرقة في جو من التنافس بين الفرق مثير وبناء .

المخطط البياني لأساليب الادارة

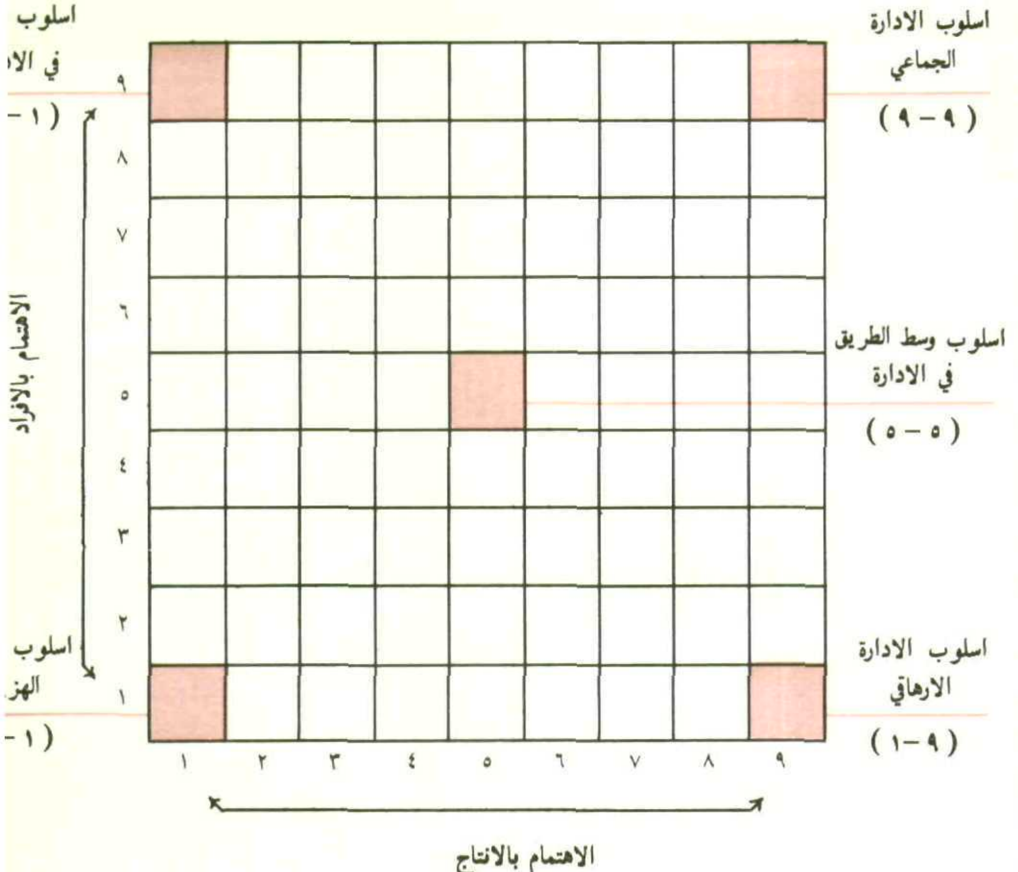
يمثل الرسم أعلاه المخطط البياني لأساليب الادارة كما تعرضه الدراسة المذكورة . ويركز المؤلفان على خمس نظريات تحتلها نقاط زوايا المخطط ونقطة الوسط فيه ، مع أن المخطط يحدد عددا أكبر من النظريات يعادل عدد النقاط التي يحويها . وتسمى كل نقطة من النقاط الخمس المذكورة أسلوب ادارة . وتمثل النقطة الواقعة في الزاوية اليسرى السفلى من المخطط البياني « أسلوب الادارة الهزيل » ، وهو يدل على الحد الأدنى من الاهتمام بالانتاج والأفراد في آن واحد . وتقابلها في الزاوية اليسرى العليا نقطة تمثل « أسلوب النادي في الادارة » الذي ينطوي على الحد الأدنى من الاهتمام بالانتاج والحد الأقصى من الاهتمام بالأفراد . في حين تمثل النقطة الواقعة في الزاوية اليمنى السفلى « الأسلوب الارهاقي في الادارة » ، الذي يدل على الحد الأقصى من الاهتمام بالانتاج ، والحد الأدنى من الاهتمام بالأفراد . وتقابلها في الزاوية اليمنى العليا نقطة تمثل « أسلوب الادارة الجماعي » الذي يدل على الحد الأقصى من الاهتمام بالانتاج والأفراد في آن واحد . أما النقطة الواقعة وسط المخطط فانها تمثل « أسلوب وسط الطريق في الادارة » الذي يدل على موقف وسط بين مجالي الاهتمام بالانتاج والأفراد . وأسلوب الادارة الجماعي هو الأسلوب الاداري المثالي ، وهو ما يطمح أن يصل اليه الاداريون . ولا تتفاوت هذه الأساليب في درجة الاهتمام بالانتاج والأفراد فحسب ، بل تختلف طرق معالجتها لكثير من الأمور الادارية .

وتنبثق نظرة « الأسلوب الارهاقي » الى اختلاف وجهات النظر الادارية بين الرئيس والمرؤوس ، وسيطرة الرئيس ، واستعمال المرؤوسين عوامل الابتكار فيما يعود على الانتاج والمؤسسة

بالضرر تحت تأثير شعار « الانتاج أو ترك العمل » ، ويعتمد هذا الأسلوب على معالجة الأخطاء بعقاب المتسبب فيها . بينما ينظر مدراء « أسلوب النادي في الادارة » الى جميع هذه الأمور من خلال تكريس المحافظة على العلاقات بين الأفراد بغية استمرار وجود جو مفعم بالود في المؤسسة ، وينال الانتاج ضمن هذا الأسلوب أقل قسط من الاهتمام . أما المدراء الذين يتبعون أسلوب « وسط الطريق » فانهم يعتقدون انه بالامكان تسيير المؤسسات تسييرا مناسبا عن طريق الموازنة بين ضرورة انجاز العمل (الانتاج) والمحافظة على علاقات الأفراد ومعنوياتهم ، وهم يلجأون في حل مشكلاتهم الى الطرق التي سبق اتباعها في مواطن مشابهة بغض النظر عن فعاليتها أو نتائجها .

أما أسلوب « الادارة الهزيلة » فانه يعتمد مبدأ « عدم التدخل » لأن المدراء الذين ينتمون الى هذا الأسلوب لا يعتبرون تحقيق أهداف العمل أو العلاقات السليمة بين الأفراد من القيم التي يجدر بهم أن يسعوا الى تحقيقها . وهذا الأسلوب يقوم على أساس بذل أقل جهد في العمل ، وابداء أدنى اهتمام بالانتاج والأفراد على حد سواء .

ويحظى أسلوب « الادارة الجماعية » بأكبر قدر من التركيز في هذه الدراسة لأن القيادة التي تعتمد هذا الأسلوب تتجنب ضيق الأفق وتركيز الاهتمام على العمل وحده ، كما يحدث عند اتباع الأسلوب الارهاقي ، وتتجنب أيضا تركيز الاهتمام على الأفراد فقط ، كما يحدث عند اتباع أسلوب النادي ، كما تتجنب التضحية بجزء من الانتاج في سبيل الابقاء على جزء من رفاهية الأفراد ورضاهم ، كما يحدث لدى اتباع أسلوب وسط الطريق ، وهي أيضا على النقيض من أسلوب الادارة الهزيل . والادارة الجماعية تقدر العلاقات القائمة بين الأفراد وتهتم بها اهتمامها بالانتاج ، وذلك بغية تحقيق النجاح للجميع بدافع المصير المشترك بين الأفراد والمؤسسة. هذا بالاضافة الى أن الادارة الجماعية تتيح للأفراد فرصة المشاركة في معالجة اختلاف وجهات النظر الادارية ، كما تتيح لكل منهم فرصة تنمية قدرته على الابتكار عن طريق التخطيط المشترك وتنفيذ العمل حسب الخطة ، ومتابعة التنفيذ ومعالجة الأخطاء بدراسة أسبابها ودوافعها ، ثم اقتراح الحلول وتقييم النتائج . وهذا الأسلوب ،





تطمح المؤسسات والشركات الى تطبيق أسلوب الادارة الجماعي لما ينطوي عليه من أعلى اهتمام ممكن بالانتاج والأفراد معا ، ولذلك فانه يعمد في الدورات الادارية التي تعقدها الشركة الى تطبيق هذا الأسلوب . ويبدو في الصورة فريق من المتدربين أثناء انشغالهم باحدى المشكلات لإيجاد حل جماعي لها .

يساعد على ايجاد جو يسمح بالانتفاع بقدرات الأفراد على التفكير الايجابي المبدع وعلى اقتراح الأفكار الجديدة الهادفة الى حل مشكلات الانتاج وتطوير وسائله وتحسينها .

وبالاضافة الى الأساليب الخمسة السالفة الذكر تتعرض الدراسة الى عدة نظريات أخرى ثانوية تمتزج في كل منها نظريتان أو أكثر من النظريات الأساسية التي انبثقت عنها الأساليب الخمسة التي يضمها المخطط البياني . وأهم هذه النظريات :

• النظرية « الأبوية » : ويمكن وصف العلاقة التي تقتضيها بين الرئيس ومرؤوسيه بأنها تقوم على « الرقابة » و « الرعاية » معا . ولذلك فانه يمكن أن تقرن هذه العلاقة بظروف الأسلوب الارهاقي من حيث التوجيه والرقابة ، وبظروف أسلوب النادي من حيث الاهتمام برفاهية الأفراد ورعايتهم في آن واحد .

• نظرية « البندول » : وهي نظرية تكون الأمور التنظيمية فيها متأرجحة بين طرفي نقيض ، فهي ارهاقية حينا ، وتتبع أسلوب النادي حينا آخر .

• نظرية « القناعين » : وتعتقد الادارة التي تتبعها بأنه يجب أن تنظر الى شؤون الانتاج على أنها مستقلة ومنفصلة عن شؤون الأفراد ، وذلك بعقد اجتماعات ادارية لمعالجة شؤون الانتاج دون غيرها ، ثم عقد اجتماعات أخرى لمعالجة شؤون الأفراد دون الربط بينها وبين الانتاج .

• نظرية « وسط الطريق الاحصائية » : ويستخدم المدراء الذين يعتقدون بهذه النظرية الأساليب الخمسة في أعمالهم اليومية . وهم يديرون العمل حسب واقع الحال ، لذلك فهم أحيانا يطبقون الأسلوب الارهاقي ، وأحيانا يطبقون أسلوب النادي ، وتارة أسلوب الادارة الجماعية ، وأخرى أسلوب الادارة الهزيل .

ولا يمكن أن يصنف أحد المدراء بأنه ينتمي دائما الى أسلوب أساسي لا يتعداه ، غير أن لكل مدير أسلوبا أساسيا يميز معظم تصرفاته الادارية ، وأسلوبا ثانويا أو أكثر يميز بعض تصرفاته الأخرى في حالة تعذر تطبيق أسلوبه الأساسي .

وبعد .. فان مزيدا من الدراسة والمثابرة والتدريب الناجع والمتابعة تدفع بكثير من رجال الأعمال العاديين الى تسنم قمم مؤسساتهم مدراء ناجحين ، يولون كلا من الأفراد والانتاج أقصى اهتمام ممكن ■

السيد عمر باطويل ، أحد الخريجين المشتركين في احدى دورات التدريب على الرئاسة يتسلم شهادة التخرج من المستر وليام أوجريدي ، مدير ادارة التدريب في أرامكو .



السيد محمد عارف يونس يلقي كلمة خريجي المشتركين في احدى دورات التدريب على الرئاسة في الظهران .



٭ تتأهب لجنة برياسة العلامة الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم لإخراج طبعة جديدة كاملة من كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني ، بعد ما تبين من المراجعة الدقيقة والمقارنة بالمخطوطات أن جميع الطبعات السابقة قد أسقطت منها فصول برمّتها وضاعت منها أقسام كاملة ، فضلا عن أن أجزاء بأسرها لم تنشر حتى الآن . وما زالت عناية الأدباء بكتب التراث متصلة . فقد حقق الدكتور عثمان أمين كتاب « احصاء العلوم » للفارابي وشرحه بتوسع معلقا على مادته ، كما حقق الدكتور احسان عباس كتاب « نفح الطيب » للتلمساني ، وحقق الدكتور عزت حسن كتاب « ديوان الطرماح » وهو من الشعراء الذين أهملتهم دراسات الأدباء ، وحقق الأستاذ سهيل زكار كتاب « تاريخ خليفة بن خياط » عن رواية بقي بن مخلّد ، وظهر في جزءين كبيرين .

٭ من الدراسات الأدبية التي ظهرت أخيرا « أثر القرآن في تطور النقد العربي الى آخر القرن الرابع الهجري » للدكتور محمد زغلول سلاّم وقد قدّم له الأستاذ محمد خلف الله أحمد عميد معهد الدراسات العربية العليا ، و « أثر المعدة في الأدب العربي » للأستاذ بهيج شعبان وهو بحث طريف في المآكل والمشارب كما تناولها الكتّاب القدامى ، و « تجربتي الشعرية » للشاعر الأستاذ عبد الوهاب البياتي يعرض فيه الشاعر فلسفته ومذهبه والعوامل التي أثّرت فيه ، و « المرأة في حياة العقاد » وهو دراسة تحت الطبع أعدّها الدكتور عبد الحي دياب ملقيا بها ضوءا على الحياة العاطفية لعملاق الأدب وكذلك على آرائه في المرأة من خلال كتاباته وأحاديثه . كما ظهرت ترجمة عربية لكتاب « الفكر العربي المعاصر » للدكتور ألبرت حوراني وهو يتناول المعالم الرئيسية في الحركة الفكرية العربية في القرن الحالي . وصدر للدكتور أسعد علي كتاب « تهذيب المقدمة اللغوية » ، وظهر للأستاذ رجاء النقاش كتاب « أدباء معاصرون » وهو دراسة نقدية لطائفة من الآثار الأدبية الحديثة .

٭ أصدر الأستاذ الكبير توفيق الحكيم كتابا عنوانه « رحلة الربيع والخريف » اشتمل على مسرحيتين وقصائد نثرية فاض بها خياله .

٭ وفي الأدب الروائي ظهرت مسرحية شعرية ممتازة عنوانها « همّام أو في عاصمة الاحقاف » للأديب الشاعر الأستاذ علي أحمد با كثير ، كما ظهرت رواية « الصمت والحقيقة » للأستاذ ياسين حسين ، ورواية « الأرض والرجال » للأستاذ علي أبو حيدر ، ومسرحية « في انتظار غودوت » لصموئيل بيكيت ، وترجمة الأديبة هالة فرح ومراجعة الأستاذ حسام الخطيب . كذلك صدر المجلد الثاني من مسرحيات راسين بإشراف الدكتور طه حسين ، وهو يضم مسرحية « المتقاضون » وقد ترجمها الأستاذ أحمد عبد الله وراجعها الدكتور عبد الحميد الدواخلي وحققها الأستاذ محمد عبد الغني أيوب ، ومسرحية « بريتا نيكيس » وقد ترجمها الدكتور لطفي فام وراجعها الأستاذ يحيى حقي وحققها الدكتور عبد الحميد الدواخلي ، ومسرحية « برينيس » وقد ترجمها الدكتور أنور لوقا والدكتور أحمد عبد الحميد يوسف وراجعها الأستاذ حسن نديم وحققها الدكتور عبد الحميد الدواخلي . وأصدر الأستاذ عصام عسيران مجموعة من الأقاصيص المؤلفة والمترجمة بعنوان « الرمال والعيون » .

٭ من كتب أدب السير والتراجم التي ظهرت مؤخرا هذه الطائفة : « أحمد شوقي لحن المجتمع والوطن » للأديبة نازك سابا يارد ، و « الغزالي » للأستاذ عبده الحلو ، وطبعة ثانية منقحة من كتاب « سلامة موسى المفكر والانسان » للأديب المؤرخ الأستاذ محمود الشرقاوي .

٭ ومن دواوين الشعراء التي ظهرت أخيرا « رحلة الحروف الصفر » للأستاذ بلند الحيدري ، و « ألحان بلا أوزان » ، وهو شعر منثور للأديبة شريفة فتحي ، و « فجر وغيوم » للأديبة كوثر نجم . كما يصدر قريبا للاستاذ العوضي الوكيل ديوان « نسمات الخريف » وللأستاذ عبد الوهاب البياتي ديوان « الكتابة على الطين » .

٭ ظهرت طبعة جديدة في جزءين كبيرين من كتاب « الريحانيات » لفيلسوف الفريكة المرحوم الأستاذ أمين الريحاني .

٭ من الكتب الجديدة التي ظهرت عن ليبيا هذه الطائفة : « قصة اكتشاف ليبيا في العصر الحديث » للأستاذ نجم الدين غالب الكيب و « جولة في ليبيا — الولايات الغربية » وهو باللغة الانكليزية لفيليب وارد ، و « قبائل العرب في ليبيا » للأستاذ محمد رجب الزائدي و « دراسات في الأدب الشعبي الليبي » للأستاذ عبدربه الغناي .

٭ من الدراسات التي تعنى بالتاريخ منهجا ومادّة والتي صدرت مؤخرا ، الجزء الأول والجزء الثاني من كتاب « تاريخ مكة » للعلامة الأستاذ أحمد السباعي ، وكتاب منهاج « توينبي التاريخي » من تأليف الأستاذ فؤاد محمد شبل الذي سبق ان ترجم للمؤرخ أرنولد توينبي كتابه المشهور « مختصر التاريخ » وأشرف على تلك الترجمة العلامة الراحل الأستاذ محمد شفيق غربال . ومن الكتب التاريخية الأخرى « العصور الوسطى الأوربية » للدكتور عبد القادر أحمد اليوسف ، و « جبيل وبلادها في التاريخ » للأستاذ فوزي سابا ، و « التجربة المغربية » للأستاذ محمد عنان (وهو غير العلامة الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان المعروف بدراساته الأندلسية والمغربية المشهورة) .

٭ أصدر الأستاذ مدحت كاظم كتابا عن تنسيق المكتبات وفقا لنظام ديوي العشري عنوانه « التصنيف » .

٭ « مبادىء القانون المقارن » هو أحدث كتاب ظهر للدكتور عبد الرحمن البزاز .

٭ من الكتب العلمية الجديدة التي صدرت حديثا : « التربية والتكنولوجيا » للأستاذ محمد مصطفى حرب ، و « العمل العلمي ومؤسساته » للأستاذ شيت نعمان ، و « العلم ومشكلات الانسان » للأستاذ يوسف مصطفى الحاروني ، و « صناعة الزجاج » للأستاذ رؤوف محمد النحاس .

٭ صدرت للدكتور يوسف ادريس مجموعة خواطر اجتماعية في كتاب عنوانه « بصراحة غير مطلقة » ■

قصة نفس



تأليف : الدكتور زكي نجيب محمود
عرض وتحليل : الاستاذ عزت محمد ابراهيم

من الملاحظات الأدبية أن الأدب الحديث أصبح يتجه الى التجارب الحية النابضة أكثر من اتجاهه الى استيحاء أحداث التاريخ ووقائع الماضي ، لذلك كثرت محاولات القصة على تفاوت المقدرة في امتلاك ناصيتها . ومن فاته التبريز فيها ، لم يفته المشاركة في الحديث عن النفس على أي نحو كان ، حتى لقد أصبح من المألوف المعتاد أن يجعل الأديب سيرة حياته في كتاب يتوج به جهاده الأدبي أو الفكري ، وأصبح سجل الترجمة الذاتية حافلا بقدر ملحوظ من أسماء الكتب وعناوينها في هذا المنحى من مناحي التأليف . ولم يقتصر الأمر على الأدباء وحدهم ، بل شارك فيه كل ذي مقدرة على الكتابة من غير الأدباء ، وكل ذي سعة في تجارب الحياة ومشاركة في خضمها الواسع العريض.

ومن كتب الترجمة الذاتية وأدب الحديث عن النفس ، التي ظهرت مؤخرا ، كتاب الدكتور زكي نجيب محمود « قصة نفس » ، والمؤلف غني عن التعريف بما له من مؤلفات وفصول ومقالات تجعله في مصاف الأدباء المشهود لهم بالكفاءة والتقدير ، وان لم ترتفع به الى المكانة التي كان يودها لنفسه أو يطمح الى بلوغها . وتجد ذلك تلميحا أو تصريحا في بعض كتاباته ، كما تجده في كتابه هذا لما فيه من شكوى أعادت الى ذهني شكوى عبد الرحمن شكري – رحمه الله – في كتابه الذي تحدث فيه عن نفسه ، والذي يحمل ذات عنوان الدكتور زكي ، فضلا عما بين الكتابين من مشابهة تتجاوز العنوان الى المنهج والاتجاه .

تقسم الترجمة الذاتية المعاصرة الى قسمين متمايزين لكل منهما سماته وعلاماته ودلائله : أحدهما يتجه الى التلميح ورسم الخطوط العريضة ، ويتمثل ذلك في كتاب « الأيام » للدكتور طه حسين ، والآخر يجنح الى الدقة ، ويميل الى الحديث المباشر فيما كتبه أحمد أمين في « حياتي » ، والعقاد في « حياة قلم » و « أنا » وتوفيق الحكيم في « سجن العمر » .

ففي أي الاتجاهين تسلك « قصة نفس » ؟

لا في هذا ، ولا في ذاك ، فهو كتاب مزيج بين القصة والترجمة الذاتيـــة ، يستطيع القارىء أن يقرأه قراءته لقصة لها مقوماتها وأصولها مستغنيا بها عما سبق للمؤلف أن كتبه وألفه . ويستطيع أن يقرأه قراءته لترجمة ذاتية تزداد في ناظريه وضوحا على ضوء ما سبق لـه معرفته من مؤلفات الكاتب ودراساته واسهامه في الحياة الأدبية والفكرية والجامعية على مدى سنوات طوال حافلة .

وهو — على أي نحو كان — كتاب جدير بالتقدير والاعتبار ، تقديرا لعله يزيل عن نفس كاتبه ما ران عليها من ظنون الجحود والنكران ، وما هو جحود ونكران ، وانما هي الاصالة والابتكار تدفعان بالكاتب الى مكانته الحقيقية التي يستحقها. فما أظن الحظوظ والمصادفات ، بالغة ما بلغت ، كانت خليقة بأن تدفع العقاد ، وأحمد أمين ، وهيكل ، وتوفيق الحكيم ، والمازني الى مكانة لا يستحقونها بغير جهد ذاتي ، ومثابرة دائبة ، واصالة حقيقية . ولا ننكر مع ذلك اثر المصادفات والفرص السانحة ، ولكننا لا شك ننكر الاحالة المطلقة عليها التي تأبى الا أن تفسر كل نجاح بها ، وكل شهرة الا طائرة على جناحيها .

هي حظوظ الموهبة والاصالة تختار من تشاء ، وهي حظوظ الجهد والمثابرة تتوفر لأناس ولا تتوفر لسواهم ، فيحسنون الافادة منها ، والانتفاع بها . وهي على الحالين تنبع من الذات أكثر مما تنبع مما حولها وما يحيط بها ، وفي ذلك قضاء على دعوى الحظ والمصادفة في خضم الحياة .

والشخصية الرئيسية في القصة شخص عجيب أحدب النفس ينوء تحت عبء الحياة الذي أثقل كاهله . وهو دائم الهم كثير الاكتئاب ، قلما يفتر له ثغر ، أو تنفرج له شفتان عن بسمة . فاذا قابله راوي القصة ، أو صاحب ضمير المتكلم فيها ، كانت أول عبارة يسمعها منه وأول عبارة تبدأ بها القصة كذلك — هي تلك التي تفيض مرارة وأسى : « الحياة عبئها ثقيل على من أصابه في الحياة خذلان .. »

وهو أحدب النفس وأحدب الشكل والسمت أيضا ، لا من عيب في الخلقة ولا من تشويه في التكوين ، ولكن من أثر هذا العبء الباهظ الجسيم الذي ينوء به كاهله ، والذي ترك أثره على شكل قتب كبير يراه الناظر ، ولا تخطئه العين . وهو قتب أمره عجيب ، فهو يشتد بروزا اذا اشتدت على صاحبه وطأة الحياة ، ويخف حتى يتلاشى أو يكاد اذا خفت الوطأة ، وهان الحمل .

فاذا دار بين الأحدب والراوي حديث قصير، بعد أن شغله أمره ، وجعله يمعن التفكير في رأيه في الحياة وفلسفته لها ، ودّ لو اتصلت بينهما الأسباب ، فيعرف عنه المزيد مما لم يكن يعرف ، ويستطلع ما خفي في جنبات نفسه من مكنون ومستور . وما زال به يتعقبه ويقتفي أثره حتى صعد اليه في ملاذه الذي اختاره لنفسه في منأى عن الناس ، وبعد عن ضجة الحياة وضجيجها ، وتحقق لـه بذلك ما أراد من صله به ومن رغبة في كشف مكنون سره . فاذا بدأ المؤلف نبش تاريخ حياة الأحدب ، وأمسك الخيط من أوله ، فقد بدأ حديث الواقع ، لا حديث الخيال والرمز ، وعرف مولد الأحدب وبلده الذي كان فيه مسقط رأسه ، وهو بلد يقع في شمالي الدلتا الى أقرب محطة في البر الغربي من فرع دمياط .

وتلك نقطة ذات دلالة في الاشارة الى موضوع الكتاب ، ووضعه في مكانه الصحيح بين تواليف النفس والذات أو تواليف القصص والخيال .

وقد وجد الراوي في بداية حديثه مع صاحبه الأحدب مفتاح شخصيته الذي يستطيع أن يحل به كل مستغلق ، ويفك به كل رمز عصي على الجلاء والوضوح : كان الأحدب طفلا صغيرا ، لم يحمل من أعباء الحياة شيئا ينوء به ، حين كان يحمل في احدى يديه حصانا من الحلوى ، ويمسك بالأخرى يد أبيه ، وقال أبوه : أريد أن أراك رجلا عظيما . وما كاد يتم كلماته حتى عثرت قدما الطفل فانكب على وجهه ، وتناثرت الحلوى على الأرض قطعا . وعلقت الواقعة برمتها في ذاكرة الطفل ، لا تمحى ، وكأنها الرد الحاسم يأتيه في كل مرة يتطلع فيها من حوله ، فلا يجد أنه قد حقق في حياته شيئا ، أو نال مرادا ، أو أمسك بين يديه مقصودا طال اشتياقه اليه وتطلعه نحوه .

ويتراءى للراوي أن يمسك بمفتاح آخر لهذه الشخصية الغامضة الشديدة الالتواء ، الكثيرة التلافيف والمنحنيات — وما ينبغي لمثلها أن يكون لها مفتاح واحد — ويجده هذه المرة في حادثة أخرى لصاحبه في صباه حين سرق كيس حلوى ، وأمسك بـه صاحب الحانوت حانقا متوعدا اياه بإبلاغ الأمر الى أبيه ، ليلقى منه الجزاء الأوفى على ما اقترفت يداه من إثم . وارتاع الصبي من سوء ما يتهدده ، وملئت نفسه رعبا وهلعا ، فذهب الى بيته فلاذ بأسفل السرير . ويبحثون عنه فلا يجدون له أثرا ، ويمضون في البحث تساورهم الشكوك والظنون ، وهو في مكمنه يسمع ما يدور ويقال ، ولا يحرك ساكنا .

وذلك مفتاح آخر للشخصية . وأي مفتاح تريد لشخصيته أجل وأوضح من هذا الذي ذكره الآن ؟ ان اختفاءه في الظلام اتقاء لعقاب مرتقب ، ثم ارهاف الحس ليتتبع مجرى الحوادث من حوله دون أن يغادر مخبأه ، فيهما محور حياته كلها : انطواء من ناحية ، وتسلل بالسمع وبالبصر في الخفاء الى ما يدور في العالم من وقائع وأحداث من ناحية أخرى . انه كمن يريد أن ينظر الى العالم من ثقب الباب .

أما أنا فلا أرى فيها كل هذه الموجبات للتحليل والتعليل ، فهي أبسط من أن تخفي وراءها كل هذا السيل من المعاني ، وهو تصرف مألوف من الصغار في مثل هذه السن ، يهربون به من العقاب المنتظر ، ولا يخطر ببالهم أن يكون مكمنهم وسيلة للنظر الى العالم من ثقب باب ، أو خصاص شباك ، وهم في حالة من الذعر والخوف تحول بينهم وبين التفكير والتأمل على نحو يكون مفتاحا لشخصية أو أداة لتحليل وتعليل .

واذا هم الارتياب أن يساورك فتظن أن أحدب النفس هو المؤلف ذاته ، فما أسرع ما يرد

عن نفسه التهمة ، ويزيل شبهة الظن حين يتخذ لصاحبه اسما هو « رياض عطا » ، وهو ليس اسم المؤلف بطبيعة الحال ، وليس كذلك اسم الراوي صاحب ضمير المتكلم ، ولكنهما ردّ وازالة لا تجديان كثيرا . بيد أن الظن ما يلبث أن يقوى حين يقول المؤلف في موضع آخر من الكتاب : « بيني وبين الأحدب من أوجه الشبه ما يفسر هذا التجاذب الذي صادق بيننا الى الحد الذي يجعل كلا منا يفرح بلقاء الآخر ، ويسعى اليه . فكلانا بدأ حياته مدرسا ، وان كنت أنا قد سبقته الى المهنة بخمس سنوات ، هي الفرق بين عمرينا ، وكلانا لبث حياته عزبا لم يتزوج ، ولكلينا ولع بناحية خاصة من الثقافة يميل بها نحو تتبع الاتجاهات الفكرية العامة في الفلسفة والنقد ، وفي الفــن وفي السياسة والاجتماع ، تتبعا يجنح نحو التجريد في الفكرة والبعد عن التطبيق .. »

ولندع هذا الأمر الى حين ، فسيزداد من السياق جلاء ووضوحا ، ولنعرف الأحدب من الآن باسمه « رياض عطا » .

أما الراوي فقد كان حينذاك مفتشا في وزارة التربية والتعليم ومن طبيعة عمله الانتقال من مكان الى آخر ، وقد شغلته هذه الطبيعة عن « رياض عطا » أسابيع قليلة ، كان عليه أن يسافر في غضونها الى مدينة المنصورة . وفي القطار المتجه اليها تدفع به الصدفة الى لقاء صديق شبابه ، « فريد » وزوجته « عفاف » ، بعد غياب طويل كان لهم قبله صلات لا تنقطع ، وود لا يبلى له أديم . ولا يعنينا من هذه الحادثة الا ما له صلة وارتباط برياض عطا ، فهو محور كل حادثة ، وواسطة العقد في كل فصل مــن فصول القصة .

وتتشعب بين ثلاثتهم سبل الكلام ، كل يشغل فيه بما يهمه ، وليس ما يشغل الراوي غير « رياض عطا » ، فاذا ذكــر اسمه بدا على فريد ما يوحي بمعرفته له ، ثم تحقق الأمر على وجه اليقين ، ومضى يتحدث عن ذكرياته عنه حين كان مدرسا في مدرسة « ميت غمر » منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما ، فلفت الأنظار ، وأثار الانتباه .

وأصغى الراوي الى الحديث كل اصغاء ، مزمعا أن تكون « ميت غمر » هي أول بلدة يستزيد فيها علما بصاحبه . بعد أن يفرغ من أمر المنصورة ، وما لها عنده من غالي الذكريات .

واذا ذهب الراوي الى المنصورة ألقــت المصادفات في وجهه بصحبة قدامى من بينهم كامل راغب ، ذلك المخضرم العتيد الذي أطال المكث في بلدة « ميت غمر » ، فلم تفته شاردة ولا واردة عمن قدم اليها ، أو رحل عنها ، وفي جعبته الكثير — لا مراء — عن الضالة المنشودة « رياض عطا » .

ومن حديث الصحب ، الذي التأم له شمل من بعد طول افتراق ، نعرف اسم الراوي « حسام » فتحدد لنا بذلك الشخصية الثانية في القصة ، أو احدى شخصيتيها المهمتين بغير ترجيح .

ولا يضيع حسام وقتا ، فينصرف الى « ميت غمر » مع « كامل راغب » ناظر مدرستها ، يظهــر التفتيش ، ويبطن معرفة المزيد عن « رياض عطا » كأنه هو ميدان تفتيشه الموكل به ، فهو دائب التنقيب في حناياه وجنباته . وفي الطريق الى البلدة ينبش حديث الماضي ، ويتحين الفرصة لجذب طرف الحديث عن صاحبه وطلبته ، فيجد عند « كامل راغب » ما أمل ورجا .

وليست شخصية « رياض عطا » بالتي تنسى ، مهما طال العهد بها ، وأبعد الزمان بين من عرفوا صاحبهــا وخالطوه ، فلم يكن بفرديته المتميزة ، ونأيه بجانبه عن الناس ، بالذي يختلط بأحد ، أو يعقد مع الناس الصلات والصداقات .

ويعرف « حسام » من أمر صاحبه « رياض » أنه كان قد استقال من مهنة التدريس منذ أعوام وأنه أصبح يلتمس سبل العيش من الكتابة في المجلات الأدبية ، وقد كان له في الكتابة هوى ظل يحرك نوازع نفسه حتى استأثرت به ، وأخلص لها نفسه وذاته ، وكيانه ووجدانه .

وقد عثر « حسام » على كراسة كتبهــا « رياض عطا » بخط يده ، فيها ذكريات عن حياته ، تركها بين المهمل من أموره ، فآلت الى زميله « راغب » الذي ظل حافظا لها ، حتى ألقاها بين يدي « حسام » .

ولم تكن المذكرات متصلة مترابطة ، ولكنها كانت نتفا مبعثرة ، جعل « حسام » يجهد نفسه في الربط بينها حتى استقام له ما أعانه على المضي في قراءتها ، فعرف منها عن صاحبه مزيدا من فلسفته في الحياة ، وشيئا من بواكير صباه .

فاذا مضى في القراءة مضى صاحب المذكرات الى حديث آخر عن فترة أخرى من حياته قضاها في السودان حين انتقلت أسرته اليه ، وانتقل هو من مدارس القاهرة الى كلية « غوردون » ، حيث كان مدرس اللغة العربية الأزهري يدرس تلاميذ هذه المرحلة على نحو ما تلقاه هو في الأزهر . ويذكر صاحب المذكرات من ذلك ما كان يحفظه عن ظهر قلب ولا يفقه له معنى : « اذا ظرف لما يستقبل من الزمان ، خافض لشرطه منصوب بجوابه » فاذا كان له عنده معنى ، فهو معنى « الظرف » الذي يوضع فيه « الجواب » ويؤيد ذلك عنده تلازم اللفظين معا في جملة واحدة ، فينبغي لذلك أن يتلازم المعنيان ، كما يبدوان في ذهنه ، لا كما يبدوان في ذهن استاذه .

كما ينكر ما لاحظ عليه أترابه ما في نظره من قصر ملحوظ ، فاتخذوا من ذلك مدعاة لعبثهم وسخريتهم ، فهم يلمزونه بألقاب الأعمى والأعمش ، وما يحلو لهم من ألفاظ العبث والتندر.

وربما كان ذلك مفتاحا للشخصية ثالثا ، يأتي بعد مفتاحين آخرين ، يبدو أن ليس فيهما الغنية أو الكفاية .

وفرغ « حسام » من قراءة المذكرات فأثارت فيه الرغبة الى لقيا صاحبه ، فأسرع الى القاهرة يلتقي فيها بصاحبه وصنو نفسه ، ويصل ما كان لهما معا من أحاديث وأسمار .

وقابله « رياض عطا » على شوق مثل شوقه ، يريد أن يفضي اليه بسر من أسراره ملأ جوانح

نفسه بهجة وسرورا ، فقد وجد تلك التي فرق الزمان بينهما مدى ثلاثين عاما ، بعد أن كان قد عرفها في السودان ففتحت له عالما مليئا بالغموض والأسرار ، وطوى الزمان صفحة علاقتهما ، ففرقت بينهما ، حتى كان هذا اللقاء بعد ذاك الأمد الطويل مفاجأة لكليهما ، ومعهما زوج صاحبته ، أو صاحبة الأمس الدابر البعيد التي أنجبت الأبناء ، ولم تصبح أما فحسب ، بل أصبحت جدة ذات حفيد .

ويضم الجميع مجلس ، ومعهم « حسام » ، ويتحدث « رياض عطا » عن أطراف من حياته وما كان له في مطلعها من ميول أدبية ، فتجد في حديثه واقعا ملموسا وأشخاصا معروفين بأسمائهم الحقيقية ، فهناك « حافظ عفيفي » الذي أخذ بيده في مطلع حياته ، وهناك الدكتور « هيكل » وصحيفة « السياسة » التي خطا فيها « رياض » خطواته الأولى المتعثرة في طريق الصحافة وميدان العلم .

وذلك جانب من جوانب الترجمة الذاتية يظهر واضحا حين تفصل بينه وبين شوائبه من أحداث القصص وضروب الخيال ، وربما أضفى المؤلف على بعضه ستارا يحول بينه وبين الحقيقة السافرة ، ولكنه ستار رقيق شفاف لا يكاد يحجب شيئا .

ويتحدث « رياض عطا » عن مجلة أدبية كان يكتب فيها أثناء عمله مدرسا في الريف . فاذا التقى برئيس تحريرها قابله مقابلة الود والترحيب ، وأضفى عليه من دلائل التقدير ما لم يكن يظنه ، ثم عرض عليه المشاركة في اخراج كتب هي وسط بين التأليف والترجمة ، بما يكون فيها من عرض لكتب انجليزية يفسح المجال لاضافات وشروح .

وفرح « رياض عطا » بالمشروع الذي عرضه عليه الأديب الكبير ، وما أسرع ما لبى الطلب وقدم الكتاب الأول ، وكتب الأديب الكبير مقدمته ، التي تناولت ثناءه وشكره على كريم معاونة « رياض » ليس الا ، وكانت هذه بداية وضعت مبدأ ، وهو « أن أكتب أنا وأتعرض أنا وحدي لما نزل فيه من أخطاء » .. والحديث هنا لرياض عطا ، ولكننا عرفنا مدى التقارب بين « رياض » و « حسام » ، فليس ببعيد كذلك أن يكون « حسام » هو المقصود بهذا الكلام ، أو بمعنى أصح مؤلف الكتاب ذاته .

وذلك موضع في الكتاب يحتاج الى مناقشة ، وتلك قضية أدبية ما كان ينبغي أن تثار بمثل هذا الغموض ، وكان من الأجدى التصدي لها بغير التواء .

وأول ما ينصرف اليه الذهن هو الدكتور « أحمد أمين » — رحمه الله — فقد كان بينه وبين مؤلف الكتاب مشاركة في تأليفه سلسلة من الكتب الفلسفية والأدبية ، منها : « قصة الأدب في العالم » ، فهل كتبها الدكتور « زكي » وحده ، ولم يكتب « أحمد أمين » غير المقدمات وحدها ، وما كان دور اسمه فيها الا ترويجا لها ، ووسيلة لذيوعها وانتشارها ؟ أم ان الأمر لا يعدو أن يكون شطحة من شطحات الخيال ، ولونا من ألوان القصص ؟

كل ذلك جائز ومحتمل ، وقد كان في وسع المؤلف ، أو « حسام » ، أن يحسم الأمر ولا يتركه مثارا لقيل وقال .

ويبدو أن المؤلف لا يريد أن يكتفي بشخصية الأحدب تعبيرا عن نوازعه ، ودلالة على حياته ، فهو يضم اليه آخر هو « مصطفى مختار » ابن سميرة التي أحبها الأحدب يوما ، ثم عاد حبها الى قلبه متأججا كما كان أول مرة ، أو يزيد .

ويسافر مصطفى الى لندن ، يكمل فيها دراسته ويرسل منها رسائل تعبر عن فلسفته وآرائه في الحياة .

والشخوص الثلاثة ، حسام ومصطفى ورياض ، هي بمثابة الجوانب الثلاثة للنفس الواحدة ، أحدهما أخلاق وقواعد هو حسام ، والآخر عقل ومنطق هو مصطفى ، والثالث عاطفة وانفعال هو رياض ، والثلاثة معا هم نفس واحدة تتشعب منها النزعات ، وتتفرق السبل ، وتتعدد الأهواء ، ويختلف الحكم عليها كما يختلف على النفوس المتعددة التي لا ارتباط لها ، أو صلة تجمع بينها « .. ثلاثة رجال ظاهرهم اختلاف ، وأعماقهم اتفاق ، كأنهم ولدوا لأب واحد وأم واحدة .. » حتى لقد ظن « حسام » أن في الأشخاص الثلاثة تتجسد الأنفس الثلاث ، فلو اجتمعوا تحت سقف واحد ، لكان من اجتماعهم وحدة لا نظير لها . اذا اندفع الأحدب بانفعاله الثائر ، ألجمه حسام بقواعده البارده ، ومعهما مصطفى بنفسه التي هدأت براكينها بالنظر والتأمل .

وقد أبى المؤلف الا أن يختار لترجمته عن نفسه هذه الطريقة المتشابكة المتداخلة التي أظنها قد اختلطت عليه هو نفسه ، فهو يسمي « عفافا » باسمها الذي اختاره لها ، ثم يسميها اسما آخر هو « سامية الدمرداش » في مواضع متقاربة ومتباعدة ، الا أن يكون ذلك عن قصد لم يستبن لي مغزاه .

والقصة تتابع أحداثها — في عامتها — من خلال راويها « حسام » ، وهي وتيرة كان ينبغي على المؤلف الالتزام بها ، فلا يظهر فيها ما يخالفها أو يخرج على منوالها ، فيضطرب البناء الفني لها .

ومن السهل اليسير ملاحظة كثرة المصادفات التي تحقق في أحداث القصة ما لا يحققه التدبير المقصود . ولعل المؤلف يريد من ذلك ، عن قصد أو غير قصد ، أن يظهر أثر المصادفات في حياة الانسان ، فهي التي توجهه وتختار له ، وهي على أي حال مصادفات حسنة يسرت ما لم يكن يتيسر بالبحث والتنقيب ، ولكنها تبقى مصادفات تتحقق على الورق وبين السطور ، وقلما تتحقق في الواقع المنظور .

تبقى بعد ذلك ملاحظة أخرى تضاف الى سابقات لها ، تلك هي أسماء الاعلام المشهورين التي دست في الكتاب ، فأصبحت كالغريب المتقحم على مكان ينبو عنه ، ولا يطمئن فيه صاحبه .

وبعد ، فان الكتاب ليعتبر عملا فنيا قد استمده صاحبه من حياته ، وما أكثر ما يستمد الفنانون من حيواتهم أعمالا فنية ذات خصب ورواء ■

قصة قصيرة

الغريب

بقلم الاستاذ ابراهيم المصري

كانت تتصاعد من حجرة البيت الكبيرة أصوات ترتفع تـارة وتخفت أخرى ، وتتخللها ضحكات رنانة مبتهجة .

وكانت الجدة العجوز « الست عطيات » ، تروح وتغدو في حجرتها الصغيرة ، مهمومة النفس ، ضيقة الصدر ، متبرمة قلقة ، تنظر الى الطفلة « مديحة » القابعة في ركن من الحجرة تتلهى بمداعبة قطتها البيضاء « نرجس » ... وفجأة سمعت الجدة طرقا خفيفا على الباب الخارجي ، فامتعضت فترة ، ولكنها غادرت الحجرة مسرعة ، وهرولت الى فسحة البيت وهي تلهث . وما ان فتحت الباب حتى أبصرت جارهم « الأستاذ محمود » يبتسم لها في عذوبة ، ثم يتراجع في تردد وحياء كأنما هو يخشى دخول البيت . فأشرق وجه العجوز ، ورحبت بالرجل قائلة :

أهلا وسهلا ...

فدخل الأستاذ محمود حاملا كيسا كبيرا مملوءا بالموز والبرتقال ، وضعه في سكون على المائدة ، وطفق يتلفت يمنة ويسرة باحثا عن مقعد . فقدمت اليه « الست عطيات » مقعدا وهي تشكره في حرارة ، وتستفسر منه عن ولديه الصغيرين « حسن » و « عصام » . فهز الرجل رأسه في أسى ، وقال لها ان شقيقته المتزوجة قد ضاقت ذرعا بطفليه ، وأنه يسأل الله أن يوفقه الى امرأة تملأ عليه بيته ، وتؤنسه في وحدته ، وترعى ولديه اليتيمين . فصعدت العجوز زفرة ، وقربت مقعدها منه ، وغمغمت :

الصبر طيب يا أستاذ محمود ، وربنا قادر على كل شيء ...

فانفرجت أسارير الرجل ، ومسح بيده على شعره المجعد الذي وخطه الشيب ، وقال متلهفا :

« وأين مديحة ؟ »

بيد أنه لم يكد ينطق باسم الطفلة حتى برزت اليه مديحة من باب حجرة الجدة تاركة قطتها تسقط من ذراعها على الأرض ، واندفعت نحوه مهللة هاتفة ، ومضت تسأله عن حسن وعصام . فضمها الرجل الى صدره ، وقبلها في جبينها ، ثم تمهل قليلا والطفلة تتأمله وتنتظر . فندّت عنه ضحكة حنون ، وأخرج من جيبه ملفا كبيرا من الشوكولاتة . فتوهجت عينا الطفلة ، ولكنها كبحت من لهجتها وتناولت الملف في وقار ، وشكرته .. ووعدها الرجل بأن يصحبها في اليوم التالي الى حديقة الحيوان مع ولديه ، فصفقت مديحة وانفلتت من الرجل ، وهمّت بأن تنطلق الى الحجرة الكبيرة كي تزف الى أمها هذا النبأ العظيم . وما ان وثبت خطوة حتى ارتدّت عابسة الوجه وقد شحب لونها بغتة ، وتحيرت في عينيها الدموع .

وعندئذ اشتدت الجلبة في الحجرة الكبيرة المجاورة واختلطت الأصوات بالضحكات . فتنبه الأستاذ محمود وامتقع لونه ، ونظر نحو « الست عطيات » متسائلا ومبهوتا . فأطرقت العجوز برأسها ولوحت بيدها بحنق ، وقالت وهي تهدر :

مصطفى هنا .. جاء ليخطب ابنتي ويطلبها من عمها وأخوتها .. كم نصحتها ونصحت عمها وأولادي ، ولكني لم أقو عليها .. ان روحية عنيدة . ولقد اشتد عنادها بعد وفاة زوجها ، فهي تريد أن تقترن بهذا الشاب ، وكلهم في صفها .. كلهم يقول أن مصطفى وجيه وميسور ، ولا أحد فيهم يفطن الى أنه مخلوق أناني ، وضيع النفس غليظ الطبع ، قاسي القلب . وأما أنا فلن أسكت ، ولن أدع ابنتي الوحيدة تشقى ، ولا بد أن أبصرها بما فيه خيرها وسعادتها .

وصمتت لحظة وأردفت :

وأما أنت فيجب أن تصبر .. ولا تيأس .

فتمتم محمود :

أنا .. أنا الآن منبوذ .. روحية لا تريدني .. انها تنظر إليّ من عليائها لأني أرمل ، وموظف متوسط الحال ، وفي الخامسة والأربعين مـــن

عمري ، ولي أيضا ولدان . لا .. لن تقبل بي ابنتك أبدا زوجا لها ! وهنا ارتسمت على وجه محمود سحابة غم كثيفة . فنهض متثاقلا ، وحيا العجوز في أسف واستسلام . فتشبثت به الطفلة مديحة ، فرفعها بين ذراعيه وقبلها ، ثم تملص منها واتجه نحو الباب ، والطفلة تعدو وراءه تناديه صارخة باكية .

ولما انصرف الأستاذ محمود نصبت الجدة العجوز قامتها ، وجذبت وشاحها الأسود الذي كان قد انسدل على كتفها ، وأحكمت وضعه على رأسها ثم اتجهت بخطى ثابتة صوب الحجرة الكبيرة التي اجتمع فيها مجلس الأسرة . أما الطفلة مديحة فقد لبثت في مكانها ، وملف الشوكولاتة ملقى على الأرض بالقرب منها ، وعيناها الدامعتان تحدقان الى باب الحجرة الكبيرة الذي تركته العجوز نصف مفتوح عندما دخلت .

واستبد بالطفلة شعور الكمد بعد أن بوغتت بانصراف صديقها الأستاذ محمود . فعادت تحدق الى باب الحجرة الكبيرة وارتجفت .. تمثلت بالرغم منها صورة مصطفى ، ذلك الشاب المترفع المتغطرس الأنيق البغيض الذي أحست منذ أيام ، وأدركت مما يقال حولها ، أنه على وشك أن يقتحم هذا البيت وأن يحل فيه محل أبيها .. فجاشت في نفس الطفلة عوامل كره واشمئزاز متضاربة مشوشة ، وكانت قطتها « نرجس » تزحف اليها ، وتنساب حولها . فتناولتها بكلتي يديها وغرست أصابعها في شعرها المنفوش ، وتقدمت بخطى وئيدة نحو باب الحجرة الكبيرة ، وانكمشت وتكورت خلف مصراعه ، وجعلت تتابع الحديث وتتلقفه كلمة كلمة .

وظلت تنصت في سكون حابسة أنفاسها ، خانقة حركاتها ، جاهدة ما استطاعت لكبح جماح الرعدة المتمشية في أطرافها . وأحست أن القطة الصغيرة المسكينة تتلوى تحت ضغط أصابعها ويكاد مواؤها أن يرتفع ويكشف أمرها . فأرخت أصابعها وهي ترهف أيضا سمعها .

وبغتة ، وتحت تأثير كلمة هائلة هاجت نفسها ، فدفعت الباب ودخلت الحجرة ، ووقفت بين أمها وجدتها وأفراد الأسرة والشاب الغريب (مصطفى) ثم حملقت فيهم جميعا شبه مذعورة ، وانهارت قواها وأجهشت بالبكاء .

وكانت مديحة وهي بعد لم تتجاوز السادسة من عمرها ، قد بدأت تتعذب منذ ذلك اليوم الذي أبصرت فيه الشاب الغريب مصطفى يتصل بأهلها ويدور معظم الحديث بينهم عن أمها .

وكان والدها قد توفي منذ نحو عامين ، وكانت أمها لها وحدها ، منصرفة بجُمعها اليها ، مشغوفة حبا بها ، مغدقة عليها فيضا من دعاباتها ، ترقدها في سريرها ، وتأخذها في حضنها ، وتظل تقبلها وتغني لها حتى تنام .

تلك كانت حياتها قبل أن يفد الشاب الدخيل الغريب . فلما أقبل وكثر اتصاله بأهلها ، خيم عليها وعلى البيت ظلام وتغير كل شيء .

أحست مديحة أن شيئا في أمها يبتعد عنها ويوصد أمامها .. أحست كأن أمها تصدها فجأة ولكن في غير عنف ، وتنهرها ولكن بغير كلام ، وتود أن تنسلخ عنها ولكن في شبه لوعة عميقة دفينة تبدو واضحة في عينيها الجميلتين الحزينتين .

والحق أن مديحة كانت تشعر بأن أمها توجس خيفة من هذا الشاب الغريب ولا تطمئن اليه ، ثم تشعر كأن أمها تجاهد لإقصائها خشية أن يغار الشاب الغريب من تعلقها بإبنتها ، فيبغض الابنة ، وينفر من الأم نفسها ، ثم يتخلى عنها في النهاية ويرحل .

وكان عذاب الأم بين حبها لإبنتها وميلها الى الغريب ، واشفاقها على ابنتها وحرصها على الغريب ، يبدو فاجعا مروعا في حيرتها وقلقها ، وشرود ذهنها .. في احساسها المرّ بصعوبة الجمع في حياتها بين ابنتها وبين هذا الشاب الذي تريد أن تتخذ منه زوجا لها .

وكانت مديحة تشرف بغريزتها على قلب أمها ، وتدرك بفطرتها مبلغ عذابها . فيحز في صدرها أن تكون ضئيلة وتافهة ، وأن تعجز عن كشف اللثام عن حقيقة شخصية الشاب الغريب .

وكان كلما التقى الغريب بأمها طارت نفسها شعاعا ، وغلى فيها الحقد ، وكلما تحدث الغريب الى أمها عصفت بها الحسرة واكتوت كبرياؤها .

على أن الغريب الدخيل كان يتقرب أيضا الى مديحة ويلاطفها ، كان يلاطفها في عطف بارد يمازجه اباء ، وفي رقة فاترة يشوبها رثاء ، وفي ود زائف سرعان ما تخمده نظرة كلها ترفّع وكراهية وازدراء . لم يضمها أو يقبلها ولو مرة كما يفعل الأستاذ محمود ، ولم يسألها أبدا عن قطتها نرجس ، ولم يحمل اليها منذ دخل البيت ملفا واحدا من الشوكولاتة ، كهذا الذي جاء به الأستاذ محمود . كأن لا يراها بل يرى فقط أمها . كان يلاطفها ، ولكن ليسترضي أمها فقط . فكانت هذه الملاطفة المصطنعة المغرضة هي التي تثير حقدها الدفين عليه وتعذبها .

أجل ، كانت تريد أن يكرهها في صراحة كما تكرهه . كانت تريد أن ينهرها ويزجرها ، عسى أن يندفع الى حركة نابية مؤذية ، فتفطن أمها الى خبيثه ، وتستوثق بنفسها آخر الأمر من أنانيته وغلظته وقسوته .

وعمدت مديحة الى استفزازه واثارته ، الى كشف النقاب عن حقيقة أخلاقه وعواطفه . فكانت تتبرم به اذا دخل البيت ، وتعبس في وجهه ، وتروغ في تحيته ، وتخفي قطتها خلف ظهرها لئلا يحسدها ، وتسرف اسرافا صارخا في الاعراب عن كرهها واشمئزازها منه . ولكنه كان يغض الطرف عن مسلكها ، ويصفح مختارا عن هفواتها ، ويتظاهر بأنه أعظم وأرفع من أن يحاول النيل منها ، ثم يعاملها تلك المعاملة المفعمة بالشفقة والزراية وعدم الاكتراث .

ولما أعياها أمره واستحالت عليها اثارته ، اشتد كربها ، واستفحل يأسها ، واستبد بها الحنق والكمد ، وأصبحت لا تجد الراحة الا منزوية في حجرة جدتها العجوز بقرب قطتها « نرجس » ، أو مستقرة في أحد أركان المطبخ بجوار الخادمة « أم حنفي » ، منطوية على نفسها ، متلفعة بصمتها ، واجمة شاردة .

وهكذا احتملت مديحة كل هذا الشقاء حتى أدركها في النهاية صباح هذا اليوم المظلم المشئوم .

وها هي ذي مديحة في الحجرة الكبيرة واقفة تجاه أمها وجدتها وأفراد أسرتها والشاب الغريب .. ها هي تذكر كلمة الزواج الهائلة التي سمعتها ، وترتعش وتجهش بالبكاء ، وقطتها متدلية من يدها ، تموء مواء متقطعا مزعجا . فانتهرها خالها الأكبر وأمرها بالانصراف . فسقط رأس الطفلة على كتفها ، واستدارت متجهة نحو الباب . ولكن أمها أسرعت اليها مرتاعة وجعلت تضمها وتقبلها ، وهي تمسح عن وجهها قطرات الدموع .

ولم يتحرك الشاب الغريب ولم يتكلم . كان ينظر الى الأم والبنت في تأفف مترفع ، ويرسل أنفاسا متضجرة متعاقبة كأنه يستعجل انتهاء المشهد وانصراف هذه الطفلة النائحة . وتفرست فيه مديحة فترة ، ولوت وجهها . فدفعها خالها بمرفقه وأمرها بأن تحيي الشاب قبل أن تنصرف . فاختلجت الطفلة وتأبت ، ثم امتثلت مكرهة ، ومدت الى الشاب يدا جامدة وأوشكت أن تلمس أصابعه .

وفي تلك اللحظة أقبلت الخادمة « أم حنفي » تحمل صينية القهوة ، فأسرعت مديحة وردت يدها ، وقفزت بعيدا ووقفت خلف الخادمة . وتظاهر الشاب كعادته بعدم الاكتراث ، وانهمك في شكر صاحبة الدار وهو يتناول فنجان القهوة . ونظر الى مديحة قبل أن يشرب ، ونظرت اليه مديحة . وابتسم .. وتمهل .. وتطرّح في مقعده ، وشخصت اليه مديحة . وما كادت تراه يرفع الفنجان ويدنيه من شفتيه ، ويرشف الرشفة الأولى في تذوق ملوءه الحذر والاتئاد ، حتى أحست فجأة كأن شيئا فيها يتوثب ويتحفز ، وكأن ضوءا ساطعا يغمرها وينير بصيرتها من الأعماق .. أحست بجرأة طاغية ، وشجاعة نادرة على انتهاز الفرصة السانحة .

وفي مثل ومض البرق ، وقبل أن تفكر وتستفيق ، وثبت من مكمنها ودنت من الغريب ، وتربصت به لحظة ، ثم دفعت يده في عنف ، فانقلب الفنجان ، وانسكبت القهوة الساخنة على بنطلونه الناصع البياض ! فبهتت الأم وجمدت . وأرسل كل من في الحجرة شهقات مستهولة . أما الشاب فأجفل وانتفض مذعورا وصرخ من فرط الألم . وفي حدة ألمه ، ولوثة غضبه ، انقض على الطفلة متهافتا متشفيا ، ورفع ذراعه وصفعها . وما ان فعل حتى هبت الجدة والأم في وثبة واحدة ، وصاحت الجدة في غضب عارم :

لا تضرب الطفلة اليتيمة .

وصرخت الأم :

ليس لك أن تضرب ابنتي ... أنا أمها ومن حقي وحدي أن أؤدبها !

وجذبت الطفلة من ذراعها ، ودفعتها صوب الباب . ولكن الشاب الذي أحنقه ما حدث ، انطلق يصرخ في وجه الأم ، وهو يرتعد ويغمس منديله في كوب الماء الذي حملته اليه الخادمة ويمسح به بنطلونه :

أنت عاجزة عن تربية ابنتك ، وهي لا تجد هنا من يقوّم عوجها .. لا أريدها .. لا أريدها .. ولو تم زواجنا فيجب ابعاد هذه الطفلة عنا .. يجب أن تبقى بجوار جدتها . لا أريدها أبدا .. أبـــدا .

فوجم كل من في الحجرة وانعقدت ألسنتهم . أما الجدة العجوز فاندفعت صائحة :

لن يمكنك أن تفصل الطفلة عن أمها !

فاشتد هياج الشاب واستطرد :

اذن فينبغي أن تعيش معي هذه البنت الخبيثة المخاتلة ؟.. الله ، الله .. ! انها اليوم تغافلني وتسكب قدح القهوة على ملابسي ، فما عساها أن تفعل غدا عندما تطلق لها أمها الحبل في بيتي ؟ انها قد تضربني . أليس كذلك يا « ست روحية »؟

فعيل صبر الأم عندئذ وانفجرت ساخطة متحدية :

ألست أنت السبب ؟ نعم أنت الذي كرهتها .. أنت الذي لم تحاول أبدا أن تكسب محبتها . كنت دائما فظا معها ، ولم تدخل البيت يوما وفي يدك هدية لها . ألم أنصحك بأن تتقرب اليها وتحنو عليها ، ولكن تلطفك معها كان مجرد تظاهر ونفاق ، أنت رجل لا رقة في قلبك ولا حنان ، رجل بخيل رغم يسرك . ولقد أحست الطفلة بكل هذا ، فكرهتك . فكيف تطلب إليّ أن اقترن بك وأنت تكره ابنتي ، وتنسى أنها يتيمة ومسكينة وأحوج ما تكون الى العطف والحنان ؟

والتقطت الأم أنفاسها وأردفت في صوت قاطع :

أنا أم ، ومن يريدني يجب أن يحب ابنتي ، ومن يقترن بي فعليه أن يرعى ابنتي قبل أن يفكر في رعايتي .

فصاح الشاب مستنكرا وهو ينهض :

هكذا ؟... عظيم جدا ... ابحثي لك اذن عن رجل غبي يرضى بأن يقترن بك أنت وابنتك .

فصاحت الجدة العجوز :

أنت وقح .. أخرج .

فهبّ سائر أفراد الأسرة في اثر الشاب وحاولوا استبقاءه وهم يبدون أسفهم لما حدث ، ويبذلون جهدهم لتصفية الجو . ولكن « الست روحية » أسرعت وردتهم بحركة عصبية باترة ، ثم رفعت رأسها في شموخ ، ونادت الخادمة « أم حنفي » وأمرتها بأن تشيع الرجل الغريب حتى الباب .

وعندئـــذ توسطت الجدة العجوز جمـــع الحاضرين ، وقالت لابنتها في حرارة وصوتها يتهدج :

أفهمت الآن من هو هذا الشاب ؟ أنظري الى مصلحتك والى مستقبل ابنتك ، ولا تدعي الشباب والمال يغرران بك . أنت أرملة وأم ، ومن واجبك أن تتزوجي أرملا مثلك ذا ولد ، ويحس عاطفة الأبوة ، ويستطيع أن يعطف على ابنتك ، كما تعطفين أنت على أولاده . وهذا الرجل موجود في متناول يدك ، وأنت تعرفينه حق المعرفة ، وتعرفين مبلغ حبه لابنتك ومبلغ تعلق ابنتك به . كلمة واحدة منك وأنا أستدعيه حالا ، فقد كان هنا منذ لحظة وطلب في صراحة يدك . تكلمي أمام عمك وأخوتك ، انتهزي فرصة حياتك ، كوني راجحة العقل يا روحية ولا تتبطري !

فانتفضت « الست روحية » ، ثم شردت بأفكارها فترة ، ثم أجالت البصر حولها ، فوقعت عينها على ابنتها « مديحة » التي كانت قد خفّت اليها ووجهها الشاحب يتألق فجأة ويفيض بشرا . فاحتضنت الأم طفلتها وأطرقت برأسها ولم تتكلم . فتشبثت بها الجدة العجوز ورددت :

تكلمي .. تكلمي .

فقالت « الست روحية » :

أنت على حق !

فهتفت الجدة من أعماق قلبها :

لقد استجاب الله لدعائي !

فذهل أفراد الأسرة وتلامحوا بأبصارهـــم مبهوتين ، واندفعت العجوز نحو النافذة وفتحتها وصاحت :

يا أستاذ محمود .. تفضل .. تفضل .. نحن في انتظارك .

دخل الأستاذ محمود مترددا مستغربا خجلا ، ثم أدرك بغتة أن كل ما كان يصبو اليه من سعادة أصبح وشيكا . فتهلل وجهه الطيب ، وشاعت فيه فرحة آسرة . فارتمت عليه الطفلة مديحة وعانقته في شوق ولهفة . فقبلها كعادته في رفق وحنان . فنظرت اليه « الست روحية » وارتعشت . أحست على دهش منها ولأول مرة منذ عرفت هذا الرجل ، أن موجة من الراحة والدعة والطمأنينة تملأ قلبها وتغمر مشاعرها . فبسطت اليه يدها وقالت :

أهلا وسهلا يا أستاذ محمود ...

فلم تتمالك الجدة نفسها وأطلقت زغرودة قاصفة مجلجلة وهتفت :

ألف ... ألف مبروك .

وأما الطفلة مديحة التي أطربتها الحياة بقرب هذا الرجل الطيب الكريم الذي تحبه ويحبها ، فقد كانت ترقد في حضن جدتها سعيدة وقريرة هانئة . وكانت الجدة تغني لها أغنيات أمها ، فتنام الطفلة والأنغام العذبة الرخيمة ترن في سمعها كالجلاجل ، ثم تخفت شيئا فشيئا لتنساب بين الجفون وتهدهد الخيالات والأحلام ■





أحلى سويعات المنى نقضي [illegible] في جنى
حيث الهدوء مهيمن والطير تسرح بالهنا

تصوير خليل ابو النصر

راجع المقال